المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
عمادة الدراسات العليا

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم (١٩)

إجازة أطروحة علمية في صياغتها النهائية بعد إجراء التعديلات وبيانات الإتاحة بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الرقمية

بيانات الطالب

Name	Mohammed Bin Maghram Bin Mohammed Al–Shehri					**الاسم**	محمد بن مغرم بن محمد الشهري
University ID	43080231					**الرقم الجامعي**	٤٣٠٨٠٢٣١
College	Education					**الكلية**	التربية
Department	Islamic and Comparative Education					**القسم**	التربية الإسلامية والمقارنة
Academic Degree	Master	**year**	1433	١٤٣٣هـ	**السنة**	الماجستير	**الدرجة العلمية**
E-mail	abo.aos@windowslive.com						**البريد الالكتروني**

بيانات الأطروحة (الرسالة) العلمية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة العلمية، والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٠ / ٧ / ١٤٣٣هـ، بقبول الأطروحة بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث تم عمل اللازم، فإن اللجنة توصي بإجازة الأطروحة في صياغتها النهائية المرفقة، كمتطلب تكميلي للدرجة العلمية المذكورة أعلاه. والله الموفق.

عنوان الأطروحة كاملاً	الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس

أعضاء اللجنة

المشرف على الرسالة	الاسم	د. محمد مجاهد زين الدين	التوقيع	د. محمد مجاهد
المشرف المساعد (إن وجد)	الاسم		التوقيع	
المناقش الداخلي	الاسم	د. محمد مطلق الشمري	التوقيع	
المناقش الخارجي	الاسم	د. حازم علي بدارنة	التوقيع	
المناقش الخارجي (إن وجد)	الاسم		التوقيع	
مصادقة رئيس القسم	الاسم	د. خليل بن عبدالله الحدري	التوقيع	

إتاحة الأطروحة (الرسالة) العلمية

بناء على التنسيق المشترك بين عمادة الدراسات العليا و عمادة شؤون المكتبات، بإتاحة الرسالة العلمية للمكتبة الرقمية، فإن للطالب الحق في التأشير (✓) على أحد الخيارات التالية :

- ○ **لا أوافق** على إتاحة الرسالة كاملة في المكتبة الرقمية، وأعلم أن للمكتبة الحق في استخدام عملي أو إتاحته في إطار الاستخدام المشروع الذي يسمح به نظام حماية حقوق المؤلف في المملكة العربية السعودية.
- ◉ **أوافق** على اتاحة الرسالة في المكتبة الرقمية، وتصوير الرسالة كاملة بدون مقابل.
- ○ **أوافق** على تصوير الرسالة كاملة بمقابل وفق شروط مكتبة الملك عبدالله الرقمية والتي سبق وأن أطلعت و وافقت عليها.

توقيع الطالب		التاريخ	١٤٣٣/١١/١٦هـ

يعبأ النموذج باستخدام الحاسب الآلي، ويوضع أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة (الرسالة) العلمية في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية التربية
قسم التربية الإسلامية والمقارنة

الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس

بحث مقدم كمتطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية

إعداد الطالب
محمد بن مغرم بن محمد الشهري
الرقم الجامعي ٤٣٠٨٠٢٣١

إشراف الدكتور
محمد مجاهد زين الدين
أستاذ أصول التربية المشارك بقسم التربية الإسلامية والمقارنة

الفصل الدراسي الثاني ١٤٣٢-١٤٣٣هـ

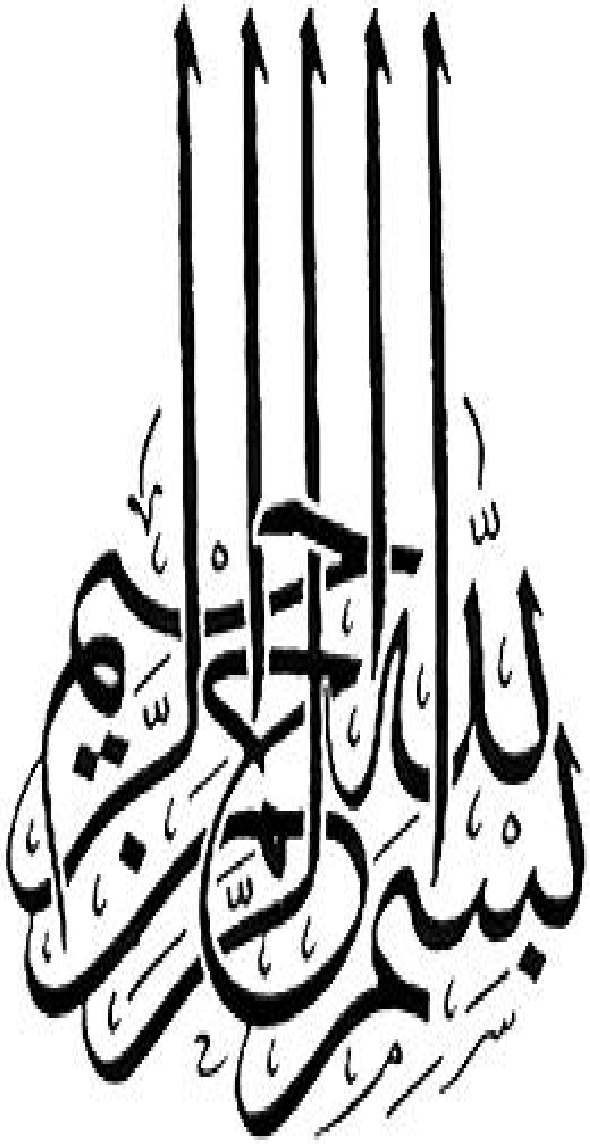
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد:

فأشكر الله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، على توفيقه وامتنانه بإتمام هذه الدراسة.

ومن باب الاعتراف بالجميل لذوي الفضل والإحسان، وعملاً بقول الحق تبارك وتعالى: M = > ? @ A B ...L[إبراهيم:٧]. وقول رسوله المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكرِ الناسَ لا يشكرِ الله"حديث صحيح[الترمذي، د.ت، رقم:١٩٥٤]، وانطلاقًا من هذا الخلق الإسلامي النبيل، فإنه لا يسعني إلا أن أعترف بالفضل لذويه، فأتقدم بجزيل الشكر وأخلصه، وبعظيم الامتنان إلى جامعة أم القرى التي هيأت الإمكانات وذللت الصعاب خدمةً للعلم وأهله، فهذه رسالةُ الماجستير التي أتممتها ما هي إلا ثمرة لهذا الصرح العظيم.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لرئيس قسم التربية الإسلامية والمقارنة الأستاذ الدكتور/ خليل بن عبدالله الحدري على ما قدمه من توجيه ونصح وتربية وتعليم، وحرصه على الرقي بمستوى طلاب الدراسات العليا.

كما أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى أستاذي الدكتور/محمد مجاهد زين الدين، المشرف على هذه الرسالة، على ما بذله ــ حال مرافقتي في هذا البحث ــ من جهد جهيد، وعون مخلص، وما أولاني من عنايته الكريمة، وما أفاض به عليّ من سعة صدره، وغزير علمه، ودقيق ملحوظاته، مما كان له الأثرــ بعد الله ــ في تذليل الصعاب في هذا البحث، وإخراجه إلى حيز الوجود، فالله أسأل أن يجزيه أفضل ما يجازي به أستاذًا عن تلميذه.

والشكر موصولاً للأستاذين الكريمين، سعادة الدكتور/محمد مطلق الشمري، وسعادة الدكتور/ حازم علي بدارنة على تفضلهما وتشريفي بقبولهما مناقشة رسالتي هذه، فجزاهما الله خير

الجزاء، والشكر موصولاً أيضاً لأساتذتي الكرام الذين تعلمت على أيديهم خلال دراستي المنهجية.

ولا يفوتني أن أتقدم كذلك بخالص الشكر والعرفان إلى كل من مدَّ لي يد المساعدة، سواء عن طريق المشورة من النواحي العلمية، أم عن طريق تيسير الحصول على المصادر والمراجع، سائلاً الله أن يجزيهم خيرًا إنه سميع مجيب.

وأخيرًا، فهذا جهد المقل، جهد من هو معرض للخطأ والصواب، والإنسان محل النسيان، والقلم ليس بمعصوم من الطغيان، والكمال لله وحده، ولا عصمة لغير الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

فإن وُفّقت ــ وهذا ما أرجوه ــ فما توفيقي إلا بالله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

ملخص الدراسة

عنوان الدراسة: الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس.

إعداد الباحث: محمد بن مغرم بن محمد الشهري.

أهداف الدراسة:

١- معرفة نشأة الإمام مالك بن أنس والعوامل المؤثرة في تكوين فكره.

٢- الكشف عن ملامح الفكر الديني، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي عند الإمام مالك.

٣- الكشف عن ملامح الفكر التعليمي لدى الإمام مالك.

منهج الدراسة: المدخل التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي.

فصول الدراسة: تتكون هذه الدراسة من الفصول التالية:

- الفصل الأول: ويشتمل على الإطار العام للدراسة.
- الفصل الثاني: ويشتمل على مبحثين: الأول: حياة الإمام مالك، والثاني: العوامل المؤثرة في فكره.
- الفصل الثالث: ويشتمل على أربعة مباحث: الأول: معالم الفكر الديني عند مالك، والثاني: معالم الفكر الاجتماعي عند مالك، والثالث: معالم الفكر السياسي عند مالك، والرابع: معالم الفكر الاقتصادي عند مالك.
- الفصل الرابع: ويشتمل على أربعة مباحث: الأول: تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام مالك، والثاني: معالم الفكر التعليمي عند الإمام مالك، والثالث: من آرائه التعليمية، والرابع: الأساليب التعليمية عند الإمام مالك.
- الفصل الخامس: الاستخلاصات العامة والتوصيات والمقترحات.

ومن أهم استخلاصات الدراسة:

١-أن الإمام مالكاً هو علم من أعلام الفكر التربوي الإسلامي، الذين ساهموا في تنشيطه وتطويره.

٢- دعوة الإمام مالك للعودة للكتاب والسنة، وهما المصدران الأساسيان في التربية الإسلامية.

٣-أن أخلاق الإمام مالك تميزت بالرفعة والسمو، ومن أبرزها الصبر والجلد والمثابرة، وكان لتلك الصفات أثرها في صبره على طلب العلم.

٤-أن الإمام مالكاً نشأ في بيئة محبة للعلم، وذلك وضعٌ شجع مالكاً على طلب العلم، وقد منَّ الله عليه بحافظة قوية وذكاء تام، فتوافر له بذلك عنصرا النبوغ، ففاق أقرانه، وصار في عداد العلماء في سن مبكرة.

ومن أهم التوصيات:

١- وجوب العودة إلى تراث المسلمين الفكري الضخم، والبحث فيه، وفي آراء المفكرين والمربين المسلمين؛ لأن في ذلك طريقاً لإثراء الفكر التربوي.

٢- مواصلة البحث في مجال التربية السلوكية عند الإمام مالك لما فيه من الاستفادة الجليلة.

٣- ضرورة اقتران العلم النظري بالتطبيق العملي في المجالات التربوية المختلفة.

Abstract

Study title: Educational thoughts of AL-Imam Malik Bin Annas

Prepared by researcher/ Mohammed Bin Maghram Bin Mohammed Al–Shehri

Study Goals:

1- Getting knowledge of Imam Malik bin Annas' childhood and affecting factors in the development of his thoughts.
2- Disclosing Imam Malik′ religious, social, political and economic thinking features.
3- Disclosing Imam Malik′ educational thinking features.

Study Methodology: Historical approach and descriptive approach.

Study Chapters: It is comprised of the following chapters.

1. First chapter: general framework of study.
2. Second chapter: it includes two sections that are life of Imam Malik and factors affecting his thought.
3. Chapter three: it is comprised of four sections as following: first is the features of Imam Malik′ religious thinking, second is the features of Imam Malik′ social thinking, third is the features of Imam Malik′ political thinking and last one is the features of Imam Malik′ economic thinking.
4. Chapter four: it is comprised of four sections as following: First is educational thinking development before Imam Milk, second is the features of Imam Malik′ educational thinking, third section is some of his educational perspectives, and last section is Imam Malik′ educational methods.
5. Chapter five: general results, recommendations and suggestions

Conclusions of the study:

a. Imam Malik is deemed one of the Islamic educational thinking pioneers who have considerable contributions in activating and development of it.
b. Imam Malik calls to depend on Holy Quran and Sunna, due to the fact they are the fundamental sources for Islamic education.
c. Imam Malik's morals are lofty, most importantly, patience, endurance, persistence. By the way, these features have highly positive influences his call for science.
d. Imam Malik has been brought up in a friendly environment for science, and this was the main motivation of him for calling science and knowledge. Moreover, Allah has granted him a solid memory and fully fledged intelligence. Thus, he has been ranked one of the scientists and scholars in early age.

Recommendations of the study:

1- Necessity of getting back to voluminous Islamic thinking heritage and searching in that heritage and in Islamic educators and scholars life. This will enrich the educational thinking.
2- Continuing research in Imam Malik′ behavioral education field.
3- The theoretical sciences should be accompanied by practical applications in miscellaneous educational fields.

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
شكر وتقدير	ب
ملخص الدراسة باللغة العربية	د
ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية	هـ
فهرس المحتويات	و
الفصل الأول: الإطار العام للدراسة	-
مقدمة الدراسة	٢
أسئلة الدراسة	٤
أهداف الدراسة	٤
أهمية الدراسة	٥
حدود الدراسة	٥
مصطلحات الدراسة	٦
منهج الدراسة	٦
الدراسات السابقة	٧
الفصل الثاني: حياة الإمام مالك بن أنس ــ العوامل المؤثرة في فكره	-
المبحث الأول: حياة الإمام مالك بن أنس	١٠
نسبه	١٠
مولده ووفاته	١٢
صفاته وحياته الخاصة	١٣
طلبه للعلم	١٦
فضله	٢٠

موقفه من العلم والزهد	٢٢
محنته	٢٥
أبرز تلامذته:	٢٨
١) عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي	٢٩
٢) أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري الجعدي	٣٠
٣) عبدالرحمن بن القاسم العتقي بالولاء المصري	٣١
٤) عبدالله بن مسلمة التميمي الحارثي القعنبي المدني	٣١
٥) قتيبة بن سعيد ين جميل الثقفي بالولاء البلخي البَغْلاني	٣١
من أقواله وحكمه	٣٢
مؤلفاته	٣٦
المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في فكر الإمام مالك بن أنس	-
أولاً: أبرز شيوخه	٤٠
١) ربيعة الرأي	٤٠
٢) عبدالله بن هرمز	٤٢
٣) نافع الديلمي	٤٣
٤) ابن شهاب الزُّهْري	٤٥
٥) جعفر الصادق	٤٦
ثانياً: ظروف عصره	٤٨
نبذة عن الانقسامات التي ظهرت بعد وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ	٤٩
الحالة السياسية في العصر الذي عاش فيه الإمام مالك	٥١
حوادث بارزة في حياة الإمام مالك بن أنس	٥٥
آثار الحالة السياسية على الإمام مالك	٥٩

الحالة الاجتماعية في عصر الإمام مالك	٦٠
آثار الحالة الاجتماعية على الإمام مالك	٦١
الحالة العلمية في عصر الإمام مالك	٦٣
آثار الحالة العلمية على الإمام مالك	٦٥
الفصل الثالث: معالم الفكر عند الإمام مالك: الديني ــ الاجتماعي ــ السياسي ــ الاقتصادي	-
المبحث الأول: معالم الفكر الديني عند الإمام مالك	٦٩
١- إخلاصه	٦٩
٢- تثبته في الإفتاء	٧١
٣- موقفه من المناظرات	٧٣
٤- سعة علمه	٧٥
٥- مكانته العلمية	٧٦
٦- موقفه من الملل والنحل	٧٧
٧- رأيه في اختلاف الأحكام والأقضية	٧٧
٨- وصيته لتلاميذه	٧٨
المبحث الثاني: معالم الفكر الاجتماعي عند الإمام مالك	٧٩
١- صفاته	٨٠
٢- مكانته	٨٠
٣- حُسن خلقه	٨٢
٤- هيبته	٨٢
٥- عفوه وحلمه	٨٤
٦- بُعد رؤيته	٨٤

٧- اختلاف أجناس وطبقات تلاميذه	٨٥
٨- علاقته بتلاميذه وشيوخه وأهله وأفراد مجتمعه	٨٥
٩- علاقته بالخلفاء	٨٩
١٠- عنايته بمجتمعه	٩٠
١١- مساعدته للمحتاجين	٩٠
١٢-من أقواله	٩١
المبحث الثالث: معالم الفكر السياسي عند الإمام مالك	٩٢
١-مواقفه السياسية	٩٣
٢-إخلاصه	٩٤
٣-بُعد رؤيته	٩٥
٤-منهجه الإصلاحي عن طريق المشاركة السياسية	٩٥
٥-المناصب السياسية التي تقلدها	٩٧
٦-نصحه ووعظه للخلفاء	٩٧
٧-تأثره بشيوخه	٩٩
٨-مكانته	١٠٠
٩-آراؤه السياسية	١٠٢
المبحث الرابع: معالم الفكر الاقتصادي عند الإمام مالك	١٠٦
• نظرته للحياة	١٠٧
• من أقواله	١٠٧
• فقره وشدة حاجته	١٠٨
• آراؤه الاقتصادية	١٠٩
الفصل الرابع: الفكر التعليمي عند الإمام مالك	-

المبحث الأول: تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام مالك	١١٢
الفكر التربوي في عصر السيرة:	١١٢
تطور الفكر التربوي في العهد المكي	١١٢
تطور الفكر التربوي في العهد المدني	١١٣
تطور الفكر التربوي في عصر الراشدين	١١٥
تطور الفكر التربوي في العصر الأموي	١١٥
المبحث الثاني: معالم الفكر التعليمي عند الإمام مالك	١١٧
أهمية المعلم في العملية التعليمية	١١٧
علاقة المعلم بتلاميذه	١١٧
عناية المعلم والمتعلم بنظافة جسمه ومظهره	١١٨
النقد والتمحيص	١٢٠
الحرص على التعلم	١٢١
أصول المذهب المالكي	١٢٢
آداب طالب العلم	١٢٣
الأمانة العلمية	١٢٥
رعاية المتفوقين والموهوبين	١٢٨
المبحث الثالث: من آراء الإمام مالك التعليمية	١٣٠
المساواة في التعليم	١٣٠
الممارسة العملية للتعليم	١٣١
تعليم المرأة	١٣٢
الموضوعية	١٣٢
اختيار المعلم الكفء	١٣٣

الاستمرارية في التعلم والتعليم	١٣٤
التفرغ للتعليم وحقوق المعلم	١٣٥
مراعاة الفروق الفردية	١٣٦
العقاب عند الإمام مالك	١٣٨
المبحث الرابع: الأساليب التعليمية عند الإمام مالك	١٤٠
١- طريقة التدريس عند الإمام مالك	١٤٠
مجلس العلم	١٤٠
القراءة	١٤١
الكتابة	١٤١
الحفظ	١٤٢
مدة الدرس ووقته	١٤٢
٢- المناظرة	١٤٣
٣- المراسلة	١٤٦
٤- أسلوب الأسئلة	١٤٨
٥- التأليف	١٤٩
الفصل الخامس: النتائج العامة والتوصيات والمقترحات	-
الاستخلاصات	١٥٣
التوصيات	١٥٨
المقترحات	١٥٩
المصادر والمراجع	١٦٠

الفصل الأول

الإطار العام للدراسة

ويتضمن ما يلي:

- مقدمة الدراسة
- مشكلة الدراسة
- أهداف الدراسة
- أهمية الدراسة
- حدود الدراسة
- مصطلحات الدراسة
- منهج الدراسة
- الدراسات السابقة

مقدمة الدراسة:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

يبدو أن العالم العربي والإسلامي يواجه صراعاً عقائدياً وفكرياً وحضارياً، ولم يعد أمامه إلا أن يعيد صياغة فكره في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والتربوية، لتحديد هويته الثقافية وخصوصيته الحضارية، لذلك ظهرت محاولات جادة بين المخلصين من رجال التربية في العالم الإسلامي في الآونة الراهنة، تدعو إلى ضرورة الرجوع إلى التراث التربوي لدراسته وتحليله ومحاولة الاستفادة منه في وضع فلسفة تربوية شاملة، تعيد للمواطن العربي المسلم أصالته، وتحدد رسالته في هذا العصر المليء بالتحديات والمتغيرات.

وتعتبر دراسة الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس من الدراسات المتصلة بالتراث التربوي الإسلامي، حيث إن الإمام مالك بن أنس ــ إمام دار الهجرة ــ أحدُ أئمة المذاهب الأربعة المشهورين، ولد بالمدينة وتوفي بها، وهب نفسه منذ صغره إلى آخر حياته في طلب العلم وتعليمه، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والوقوف في وجه أهل الأهواء والبدع، وللإمام مالك أقوال سجلها التاريخ، ونقلتها الأمة جيلاً بعد جيل تنبئ عن فكره وسعة بصيرته، شهد له العلماء بالفضل والعلم، قال سفيان بن عيينة: "مالك عالم أهل الحجاز، ومالك حجة في زمانه"، وقال الشافعي: "إذا جاءك الأثر فمالك النجم"، وأعظم شهادة تنطبق على مالك من النبي- صلى الله عليه وسلم - قوله: "يُوشكُ أن يَضربَ الناسُ أكبادَ الإبلِ يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم، وفي رواية أفقه، من عالم المدينة" حديث حسن[الترمذي، د.ت، رقم:٢٦٨٠]. ويعد موطأ مالك أول وأقدم مؤلَف معروف، فمالك على هذا يعد أول مؤلِف قد عرف بالتدوين والتأليف في الإسلام[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص١٧٥].

وتلعب التربية دوراً مهماً في حياة الشعوب جميعاً المتقدم منها والنامي على السواء، فجدير بالأمة العربية والإسلامية أن تعنى بها بصورة خاصة، لأنها معقد

الرجاء ومحط الأمل لكل تقدم وتطور للفرد والمجتمع. فبالتربية والتعليم تتقدم الحضارات وتتطور المجتمعات وتصنع الأجيال، وإن من أول الأمور التي تحتاج إلى مراجعة حين تصاب الأمة بالنكبات، أو حين تكثر في طريق تقدمها العقبات والعثرات، نظامها التربوي والتعليمي. وهكذا قرر المؤتمر الثالث لوزراء التربية والتعليم العرب المنعقد في الكويت عام ١٩٦٨م، أهمية الرجوع إلى تنقيح الأنظمة التربوية في العالم العربي، وزيادة ربطها بتراث الأمة الماجد، وبالناحية الروحية والدينية على وجه الخصوص[فرحان، ١٤١١هـ، ص١٢].

وتفيد دراسة الفكر التربوي عند علماء المسلمين في توضيح كيف عالج علماء التربية المسلمون موضوعاتهم التربوية، وفي رسم صورة لتطور التأليف التربوي عند المسلمين، كما أنه يساعد أيضاً في ارتياد آفاق جديدة للبحث في التربية الإسلامية من حيث الموضوعات ومناهج البحث وإعداد الباحثين لهذا المجال[النقيب، د.ت، ص١٨٧].

ويمكن القول أن المسلمين الأوائل تركوا تراثاً فكرياً وتربوياً غنياً يعكس صورة الماضي ويضيء طريق الحاضر والمستقبل، لذلك ينبغي الاستفادة من دراسة التراث الإسلامي لتحديد هوية الأمة الثقافية، وربط ماضيها بحاضرها.

وتعتبر دراسة الآراء والأفكار للشخصيات الإسلامية امتداداً لدراسة التراث الإسلامي، فوجود هذا الفكر هو السبب الأول لنهضة الأمة الإسلامية، فالأفكار هي الثروة الحقيقية لأية أمة من الأمم، حيث إن الثروة المادية معرضة للدمار في كل حين، كما أن دراسة الآراء والمذاهب التربوية تتيح الفرصة لعلماء التربية في مواجهة مشكلات منظومة التربية، ومن ثم نهضة التربية ورقيها.

وقد أراد الباحث في هذه الدراسة أن يبرز مكانة الإمام مالك بن أنس وجهوده التعليمية وإسهاماته التربوية، بوصفه أحد الأئمة الأربعة، والذي كان مربياً ناجحاً، استطاع أن يجذب إلى حلقته في المسجد كثيراً من طلاب العلم، نظراً لأسلوبه المميز وغزارة علمه.

وحيث إنه لم يعرف عنه إلا أنه عالم دين فقط، ولم يكشف أحد عن الجوانب التربوية في فكره حتى الآن، تحاول هذه الدراسة الكشف عن تلك الجوانب

التربوية، مما يساعد في تأصيل مناهج التعليم، ويساهم في مساعدة العاملين في المناهج وواضعي الخطط التربوية بالاستفادة منها في تطوير مناهج التعليم بما يتناسب وحاجات المجتمع الإسلامي، كما يفيد العاملين في مجال التعليم في تطوير أساليبهم التربوية في مجالات التعليم المختلفة.

أسئلة الدراسة:

أجابت الدراسة عن السؤال الرئيس الآتي :

ما الفكر التربوي عند الإمام مالك بن أنس؟

وتفرع من هذا السؤال التساؤلات الآتية:

١- ما العوامل التي أثرت في فكر الإمام مالك بن أنس؟

٢- ما معالم الفكر الديني لدى الإمام مالك بن أنس؟

٣- ما معالم الفكر الاجتماعي لدى الإمام مالك بن أنس؟

٤- ما معالم الفكر السياسي لدى الإمام مالك بن أنس؟

٥- ما معالم الفكر الاقتصادي لدى لإمام مالك بن أنس؟

٦- ما معالم الفكر التعليمي لدى الإمام مالك بن أنس؟

٧- كيف يمكن الاستفادة من فكر الإمام مالك بن أنس في مواجهة بعض مشكلات التربية في الآونة الراهنة؟

أهداف الدراسة:

١- معرفة نشأة الإمام مالك بن أنس والعوامل المؤثرة في تكوين فكره.

٢- الكشف عن ملامح الفكر الديني لدى الإمام مالك بن أنس.

٣- الكشف عن ملامح الفكر الاجتماعي لدى الإمام مالك بن أنس.

٤- الكشف عن ملامح الفكر السياسي لدى الإمام مالك بن أنس.

٥- الكشف عن ملامح الفكر الاقتصادي لدى الإمام مالك بن أنس.

٦- الكشف عن ملامح الفكر التعليمي لدى الإمام مالك بن أنس.

٧- التوصل إلى كيفية الإفادة من فكر الإمام مالك بن أنس في حل بعض المشكلات التربوية في الآونة الراهنة.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من الاعتبارات الآتية :

١- تأتي هذه الدراسة متمشية مع حركة إحياء وتأصيل الفكر التربوي الإسلامي والعربي.

٢- تحاول الدراسة ربط الأمة الإسلامية والقائمين على التربية بمصادر تراثها الأصيل.

٣- تبرز الدراسة مكانة الإمام مالك بن أنس بوصفه أحد الأئمة الأربعة، والذي كان مربيا ناجحاً استطاع أن يجذب إلى حلقته العلمية في المسجد وفي بيته كثيراً من طلاب العلم، وذلك لأسلوبه المميز وغزارة علمه، وحيث لم يعرف عنه إلا أنه عالم دين فقط، ولم يكشف عن الجوانب التربوية في فكره حتى الآن، ولأن الكشف عن هذه الجوانب يساعد في تأصيل التعليم.

٤- تسهم هذه الدراسة مع غيرها في تأكيد هوية الفكر التربوي الإسلامي والعربي.

٥- تساهم معرفة الجوانب التربوية في فكر الإمام مالك بن أنس في مساعدة القائمين على التعليم على حل كثير من المشكلات التربوية التي تواجه منظومة التعليم في العالم العربي والإسلامي.

حدود الدراسة:

تتحدد هذه الدراسة في معرفة الفكر التربوي عند الإمام مالك وذلك من خلال:

- مؤلفاته.
- الكتابات التي تناولت فكره، والتي يمكن الاستفادة منها في مواجهة بعض مشكلات التربية والتعليم في الآونة الراهنة.

مصطلحات الدراسة:

الفكر– الفكر التربوي

الفكر لغة: إعمال الخاطر في الشيء[ابن منظور، ١٤٢٦هـ، ص٦٤١].

واصطلاحاً : اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلباً أم روحاً أم ذهناً بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء[العلواني،١٩٩٢، ص١٥].

والفكر التربوي: هو ما أبدعته عقول الفلاسفة والمربين عبر التاريخ فيما يخص مجال التعليم الإنساني، ويتضمن هذا الفكر نظريات ومفاهيم وقيم وجهت تربية الإنسان عبر الأزمان[عطية، ١٤٣٠هـ، ص١٠].

ويقصد الباحث بالفكر التربوي على أنه: البحث عن التعميم النظري الذي يكمن وراء المفاهيم والقضايا التربوية، أو بعبارة أخرى: البحث عن الخلفية الفكرية والمبادئ والفروض ومجموعة المفاهيم والتصورات التي تنقل بعض المفاهيم والقضايا التربوية والتعليمية.

منهج الدراسة:

استخدم الباحث في معالجة مشكلة الدراسة المدخل التاريخي باعتباره المدخل الذي يستخدمه الباحثون الذين تشوقهم معرفة الأحوال والأحداث التي جرت في الماضي، كما أنه يصف ويسجل ما مضى من وقائع وأحداث الماضي ويحللها ويفسرها على أسس منهجية علمية دقيقة بقصد التوصل إلى حقائق وتعميمات لا تساعد على فهم الماضي وحسب، وإنما تساعد في فهم الحاضر بل والتنبؤ بالمستقبل[فان دالين، ١٩٩٤، ص٢٥٥].

كما استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وهو" ذلك المنهج الذي يقوم على تجميع النصوص المتعلقة بقضية معينة ودراستها وتفسيرها واستخلاص النتائج"[عبدالحميد، ١٣٩٨هـ، ص١٣٦]، وذلك بهدف تحليل كتابات الإمام مالك بن أنس، وما كتب عنه وصولاً إلى الفكر التربوي المتضمن به.

الدراسات السابقة:

في حدود علم الباحث ليس هناك دراسة علمية مباشرة تناولت الجوانب التربوية عند الإمام مالك بن أنس، إلا أنه يوجد دراسات تناولت الإمام مالك ولكن من جوانب أخرى غير الجانب التربوي، وقد استفاد الباحث منها في بعض جوانب الدراسة الحالية، ومن أمثلة تلك الدراسات ما يلي:

أولاً: دراسة أبانمي (١٤٠٥هـ)، بعنوان: **الإمام مالك بن أنس محتسبا**. حيث هدفت الدراسة إلى معرفة جوانب احتساب الإمام مالك بن أنس، واستخدمت الدراسة المنهج التاريخي والمنهج التحليلي، وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أبرزها:

١- احتساب الإمام مالك في طلب العلم وتعليمه.

٢- احتساب الإمام مالك في مجال الإفتاء والقضاء.

٣- احتساب الإمام مالك على الخلفاء.

٤- احتساب الإمام مالك على الولاة والأمراء .

٥- احتساب الإمام مالك على العامة.

ويتضح مما سبق وجود اختلاف كبير بين تلك الدراسة والدراسة الحالية، سواء فيما يتعلق بالأهداف والموضوع، وإن كانت تلك الدراسة قد تفيد الدراسة الحالية في الكشف عن اهتمامات مالك والعوامل المؤثرة في فكره.

ثانياً: دراسة العوضي (١٤٢٢هـ)، بعنوان: **منهج مالك بن أنس في العمل السياسي**. وهدفت الدراسة إلى معرفة منهج الإمام مالك بن أنس في العمل السياسي، واستخدمت الدراسة المنهج التحليلي، وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١- ما انفك مالك يعتمد المستندات الشرعية والضوابط الفقهية في عمله السياسي، حتى شكل ذلك ثابتا من ثوابت المنهج السياسي عنده.

٢- كان مالك يقبل عطايا الخلفاء، وكان جوهر فلسفته في منهجه ذلك أن الخلفاء لا يعطون من خاصة مالهم، ولكن من بيت المال، والعالم له حق في بيت المال لقاء تفرغه للتربية والتعليم والفتيان.

٣- اعتمد مالك المنهج الإصلاحي بالنصح والمشاركة السياسية، وذلك نزولا على مقتضيات الواقع؛ فقد وجد أن ما في الانقلابات من المفاسد أعظم مما فيه من المصالح.

٤- الدافع الأساسي وراء أصل فكرة تأليف كتابه "الموطأ" كان سياسيا، وهو توحيد القضاء الاجتهادي على رأي واحد.

٥- أصل المصلحة كان مستندا بارزا في فكره السياسي.

٦- منهج مالك في العمل السياسي كان ثمرة نظر واجتهاد، وليس ثمرة تبعية أو تقليد، فجاء متسما بالاستقلالية والمنهجية، مما يستحق معه مالك أن يوصف بأنه إمام كبير من أئمة الفكر السياسي الإسلامي.

ويتضح للباحث مما سبق وجود اختلاف أيضاً بين هذه الدراسة والدراسة الحالية، حيث إن الدراسة السابقة تركز على منهج مالك في العمل السياسي فقط، علماً أن الجانب السياسي لا يمكن تجاهله لما له من أثر على فكر مالك وحياته عند الحديث عن فكر الإمام مالك التربوي، وتتفق الدراستان في اعتماد مالك على المستندات الشرعية والضوابط الفقهية في الجانبين السياسي والتربوي.

الفصل الثاني

الإمام مالك بن أنس

حياته ـ العوامل المؤثرة في فكره

ويتضمن ما يلي:

المبحث الأول: حياة الإمام مالك بن أنس

- نسبه
- مولده ووفاته
- صفاته وحياته الخاصة
- طلبه للعلم
- فضله
- موقفه من العلم والزهد
- محنته
- أبرز تلاميذه
- من أقواله وحكمه
- مؤلفاته

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في فكر الإمام مالك بن أنس

- أولاً: أبرز شيوخه.
- ثانياً: ظروف عصره.

المبحث الأول: حياة الإمام مالك بن أنس

نسبه:

هو شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبَح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زُرْعة، وهو حِمْيَرُ الأصغرُ الحِمْيري، ثم الأصْبَحي، المدني، حليف بني تيمٍ من قريش، فهم حُلفاءُ عثمان أخي طلحة بن عُبيدِ الله أحد العشرة المبشرين بالجنة[الذهبي، ١٤٠٢هـ، ج٨، ص٤٨].

وأما من زعم أنه مولى تيم فدخل الوهم عليه، إذ وجد أنه ينتمي إليهم ويحسب في عدادهم، بسبب حلفه معهم، وإلا فنسبه في ذي أصبح صحيح، ذكر ذلك غير واحد من زعماء قريش ونسابها، وغيرهم من أهل العلم؛ كمحمد بن عمران الطلحي، وعبدالملك بن صالح، ومصعب بن ثابت الزبيري، وقال الدراوردي: قال لي أبو سهيل بن مالك: نحن قوم من ذي أصبح ليس لأحد علينا ولاء ولا عهد، وقال أبو مصعب: مالك من العرب صَلِيبَةً، وحِلْفُه في قريش في بني تيم بن مرة. قال الفريابي: سألت مُصعباً عن مالك فقال: عربيٌّ شريف، كريم في موضعه من ذي أصبح، بطن من اليمن من ملوك اليمن بني أبرهة بن الصباح. وجاء أبو المهاجر إلى عثمان بن عبدالله التيمي، أو غيره، يشتكي بأبي عامر جد مالك بن أنس، وكان أبو المهاجر على الصدقة، فقال للتيمي: ألا تعذرني من مولاك؟ قال: ليس لي بمولى، هو رجل من العرب من أهل اليمن[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٩١-٩٣].

وأما أبو الإمام مالك فهو أنس بن مالك، كان يعيش من صنعة النبال. قال أبو مصعب: كان أبو مالك مُقعداً، وكان له قصر بالجرف يعرف بقصر المُقعد[الدقر، ١٤١٩هـ، ص٢٥-٢٦].

وأما أمّه فهي العالية بنتُ شريك بن عبدالرحمن بن شريك الأزدية، وأزد: من أشهر قبائل العرب الحميرية القحطانية، تنسب إلى الأزد بن الغَوْث بن نبت بن مالك بن أُدَدَ بن زيد بن كهلان، فهي تلتقي مع زوجها أنس بأنهما من عرب اليمن[الدقر، ١٤١٩هـ، ص ٢٤].

وأما جدُّه فهو مالكُ بن أبي عامر، كان من كبار التابعين وعلمائهم، روى عن عمر، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة أم المؤمنين، وأبي هريرة، وحسان بن ثابت، وعقيل بن أبي طالب. وروى عنه بنوه: أنس والد الإمام - وبه يكنى – وأبو سهيل نافع، والربيع. وفي تقريب التهذيب: مالك بن أبي عامر الأصبحي، سمع من عمر. ثقة، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلاً إلى قبره وغسلوه ودفنوه، وذكره البخاري في الأوسط في فضل من مات ما بين السبعين والثمانين[الدقر، ١٤١٩هـ، ص٢٦].

وذكر أبو محمد الضراب أنَّ عثمان ــ رضي الله عنه ــ أغزاه أفريقية ففتحها، وكان عمر بن عبدالعزيز يستشيره، ذكر ذلك مالك في موطَّئه، وروى التستري ــ محمد بن أحمد القاضي ــ: أنه كان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان المصاحف[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٩٧].

وأبو جده هو أبو عامر – واسمه نافع – قيل: إنه صحابي، شهد المغازي كلَّها مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خلا بدراً، ذكر ذلك القاضي بكر بن علاء القشيري، وكذا السيوطي في مقدِّمة شرح الموطأ له، ولكنَّ الحافظ الذهبي في تجريده قال: ولم أر أحداً ذكره في الصحابة، ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة كلام الذهبي ولم يزد عليه، وقال بعضهم ــ كما نقل الزرقاني ــ: أبو عامر جدُّ مالك الأعلى – أي أبو جدِّه- كان في زمان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم يلقَه، سمع عثمان بن عفان، فهو تابعي مخضرم[الدقر، ١٤١٩هـ، ص ٢٧].

وللإمام مالك ثلاثة أعمام، وهم مع أبيه أنسٍ أربعةُ إخوة: أكبرهم أنس والد مالك، وأما عمُّه الأول فهو نافع بن مالك أبو سهيل المدني، وعمُّه الثاني: أُويس بن مالك، وعمُّه الثالث: الربيعُ بن مالك[الدقر، ١٤١٩هـ، ص ٢٨].

وأما عن إخوته فقد قال مالك: "كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألْهتك الحمام". ولعلَّ أخاه هذا هو النضر الذي كان ملازماً للعلماء يتلقّى عليهم ويأخذ عنهم، حتى إنّ مالكاً لما لازم العلماء كان يُعرَف بأخي النَّضر لشهرة أخيه دونه، فلما ذاع أمر مالك بين شيوخه صار أشهر من أخيه وصار يذكر النَّضر بأنَّه أخو مالك، وفي المناقب أن النضر

كان يتجر في البزِّ، وكان له أخوات منهن أم أبي بكر الأعشى ــ واسمه عبدالحميد بن عبدالله ــ وكان لمالك أخت تسكن معه تهيئ له فطره خبزاً وزيتاً، وله أختٌ ثالثة هي أم إسماعيل، وقد روى إسماعيل عن مالك[الدقر،١٤١٩هـ، ص٢٨-٢٩].

وكان لمالك أربعةُ أولاد: يحيى، ومحمد، وحمّاد، وفاطمة أم أبيها أو أمُّ البنين. قال الفروي: كنا نجلس عند مالك، وابنه يحيى يدخل ويخرج ولا يقعد، فيقبل علينا ويقول: إنَّ ممَّا يهوِّن علي أنَّ هذا الشأن لا يورث، وأنَّ أحداً لم يخلف أباه ومجلسه إلا عبدالرحمن بن القاسم، وكان ليحيى هذا ابن اسمه محمَّد، قدم مصر، وكتب عنه. وأمَّا محمد بن مالك فقد قرنه ابن حزم مع أخيه بالضعف، وقد كان يحضر مجلس أبيه، وعليه باشق ونعل كيساني، وقد أرخى سراويله عليه، فيلتفت مالك إلى أصحابه ويقول: إنما الأدب أدب الله، وهذا ابني، وهذه بنتي. ويقول الزبيري وكان لمالك ابنة تحفظ علمه ــ يعني الموطأ ــ وكانت تقف خلف الباب، فإذا غَلِط القارئ نقرت الباب، فيفطن فينظر مالك فيردّ عيه[الدقر،١٤١٩هـ، ص٢٩-٣٠].

ومن المؤكد أن الإمام مالك لم يقصر في تربية أبنائه على طلب العلم، ومع هذا فأحد أبنائه كان لا يسمع له كثيراً ولا يهتم بعلم أبيه، وهذا فيه العزاء لكل عالم ورجل صالح لم ينتفع أبناؤه بعلمه. «وقد قيل: أزهد الناس في العالم أهلُه وجيرانُه»[السيوطي، د.ت، ص١٧٦].

مولده ووفاته:

قال الإمام القرطبي أبو الفضل ــ رحمه الله ــ: اختلف في مولده رحمه الله تعالى اختلافاً كثيراً؛ فالأشهر فيما روي من ذلك قول يحيى بن بُكَير إن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، في خلافة سليمان بن عبدالملك بن مروان؛ عام موت الصحابي الجليل أنس بن مالك خادم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأما وفاته فالصحيح منه ما عليه الجمهور من أصحابه، ومن بعدهم من الحفاظ وأهل علم الأثر، ومن لا يعد كثرة: أنه توفي سنة تسع وسبعين ومائة، ودفن بالبقيع بالمدينة[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٠١].

أما مكان الميلاد فالجمهرة متفقة على أنه في المدينة المنورة، ويذهب البعض أن مالكاً ولد في مكان يبعد عن المدينة المنورة من الشمال منهـــا بـــاثنين وثلاثـــين فرسخاً، وذلك يعنى بمقاييس العصر ١٩٢ كيلومتراً، واسم هذا المكان " ذو المروة " وهو شبيه بالواحة لما فيه من عيون ومزارع وبساتين، ثم ما لبث والده أن انتقل إلى المدينة فاختار "العقيق" سكناً له، وكان العقيق آنذاك ضاحية على مبعدة نحو ميلـــين من المدينة ذات ماء وخضرة وبساتين[الشكعة، ١٤١٨هـــ، ص٣].

صفاته وحياته الخاصة:

كان الإمام مالك يتسم بجمال الخلقة وسامة وقسامة، ولم يكن من أولئك الذين إن منحوا الوسامة حرموا أشياء أخرى، وإنما أعطى الله مالكاً وسامة الخلقة وجمال القسمات ورزانة العقل وكمال الصفات، لقد وصِفَ بأنه من أحسن النـــاس وجهـــاً، أبيض شديد البياض في شقرة، مع قوام فيه بسطة وتناسق، أبيض الرأس واللحيـــة، أصلع، أزرق العينين؛ مضافاً إلى ذلك كله أناقة في الثياب وعناية في الملبس. وليس من شك في أن المظهر الجميل إذا رافقه علم نافع وعقل راجح، كان أكثر تأثيراً في نفوس الناس، وأدعى للاحترام، وحري بالإجلال.[الذهبي، ١٤٠٢، ج٨، ص٦٩].

قال الزبيري: كان مالك يلبس الثياب العدنية والجياد الخراسانية والمصـــرية المترفعة البيض ويتطيب بطيب. وقال بشر: دخلت على مالك فرأيت عليه طيلســـاناً يساوي خمسمائة دينار أشبه شيء بالملوك[الندوي،١٤٢٣هـــ،ص٨٧].

وكان خاتمه الذي مات وهو في يده فِضةً، فَصُّه حجر أسود، نقشُه سطران فيهما M...حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ L[آل عمران:١٧٣][الدقر،١٤١٩هـــ، ص٣٤].

كان الإمام يعتني بلباسه ومظهره عامداً إلى ذلك عمداً، وكان يقول: ما أحـــب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يُرى أثر نعمته عليه، وخصوصاً أهل العلم، ينبغي لهم أن يظهروا مروءتهم في ثيابهم إجلالاً للعلم[الزواوي، ١٤١١هـــ، ص١٥٥].

وربما أبدى بعض الناس ملاحظات حول العناية الفائقة التي كان مالك يوليها **ملبسه ومظهره** العام، وأن ذلك ربما كان بعيداً عن التواضع فيقول مجيباً هـــؤلاء: "التواضع في التقى والدين لا في اللباس"، ويكرر القول: "إنما كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس"[الشكعة، ١٤١٨هـــ، ص٣٥].

وكما كان مالك يهتم بملبسه ومظهره العام كان أيضاً يولي اهتماماً كبيراً **بمأكله**، ولم يكن ذلك صادراً عن بطنه أو حب للطعام ذاته بقدر ما كان نظاماً يلتزمه من منطلق ذوقه العام وعنايته بكل شؤونه الخاصة، لقد كان لبيته راتب يومي من اللحم قيمته درهمان[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٣٦].

وكان يحب الفاكهة، ويفضل الموز منها بشكل خاص، فإذا سئل في ذلك قال: ليس شيء أشبه بثمار الجنة من الموز، لا تطلبه في شتاء ولا صيف إلا وجدته وقرأM - . L(الرعد:٣٥)[الأصفهاني، ١٤٠٩هـ، ج٦، ص٣٣١].

ولم يكن التوسع في الطعام عند مالك له ولأهل بيته خاصة، وإنما كان ينال تلامذته شيء من بره بين الحين والحين، فيدعوهم إلى الطعام ويفسح لهم ويمكنهم من مرافق بيته في حرية وراحة، وكانت هذه عادة للأئمة مع تلامذتهم، وكذلك أبو حنيفة كان يدعو تلاميذه كل يوم جمعة للطعام[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٣٦].

ولم يكن مالك يعنى بمأكله لشهوة الطعام فقط، وإن كان ذلك غير إثم، بل كان يعنى بطعامه، لتكون له سلامة التفكير، والجلد على طلب العلم، وقوة الاحتمال، والظهور أمام الناس غير ضعيف، ولا متخاذل، ولا متماوت، كما يصنع الزهاد الذين لم يفهموا لب الإسلام. ولقد كان أزهد الزهاد الرسولُ الأعظم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ، يتخير أطيب الطعام مع غير حرص على طلبه، ولا شهوة في ابتغائه. وكثيرا ما يكون سوء التفكير من سوء التغذية، ونقص الإدراك من نقص الطعام، وإذا اكتظت أضرت، فكذلك إذا خلت أخلت ببنيان الجسم والعقل معا[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص ٥١].

أما بيت مالك فنظيف أنيق، مليء بالأثاث الناعم من نمارق وضجاع ومخاد محشوة بالريش وبسط، ومنصات، ويلفت نظر المرء عبارة "ما شاء الله" مكتوبة على باب البيت، ويسأل مالك في ذلك فيقول: قال الله تعالى:M Z Y X W V U] \ ...L[الكهف:٣٩]. والجنة الدار، ومن الطرائف أن زائراً عراقياً سأله عن الصورة في البيت، فقال مالك إنه لا ينبغي وجودها، فأشار الزائر إلى صورة كانت في الحائط، فقال مالك بأن الصورة ربما كانت لساكن سابق ــ وكان مالك يكتري

الدار ــ ثم أمر مالك الضيف أن يقوم فيحكها ويزيلها. ولقد قيل: إن الدار التي كان يسكنها مالك في المدينة هي دار عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ، غير أن الأمر الذي ينبغي توضيحه أن مالكاً سكن العقيق ــ وهو يبعد عن المدينة نحو أربعة كيلو مترات ــ في طفولته وفي شيخوخته[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٣٦].

وروي أنه عاش في العقيق للمرة الثانية اعتباراً من عام ١٦٠هـ على وجه التقريب، والقرينة في ذلك أن والي المدينة حين أراد تقديم الشافعي إلى مالك بتزكية من والي مكة، ذهب إلى بيت مالك بالعقيق. وحين بعث الرشيد بولديه إلى مالك ليتلقيا عنه، كان أيضاً بالعقيق، تقول الرواية: إن ابني الرشيد دقا عليه الباب فلم يفتح لهما فجلسا على الباب والريح يضرب وجوههما بتراب العقيق، فلما يئسا انصرفا، وكانت وفادة الغلامين العباسيين في العقد الثامن من القرن الثاني أي سنة مائة وكذا وسبعين، وتلك قرينة على أن الإمام قد عاش زمناً غير قصير في المرحلة الأخيرة من حياته بالعقيق، على عكس ما هو وارد من أنه سكن المدينة أكثر الوقت[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٣٧].

وكان مالك يرى أنه لا يجمل بالعالم أن يذهب إلى السوق لشراء حاجاته وحاجات بيته، ويقول في ذلك: "ينبغي للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه وإن كان يقع عليه في ذلك نقص في ماله، فإن العامة لا يعرفون قدره"[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤٠].

ويرى الباحث أن من المبادئ التربوية التي تنطلق من فكر الإمام مالك في هذا الجانب ــ جانب صفاته وحياته الخاصة ــ هي:

١- أن التركيز على الأساس هو المهم، فالتقى والدين هو الهدف والأساس وليس اللباس، وأن اللباس مادام في إطار المباح فهو مما دعا إليه الدين، فهو مظهر من مظاهر احترام الذات وما تحمله من علم ودين.

٢- أن اهتمام المرء بجمال ببيئته المحيطة به في بيته، والنظر إليها على أنها جنته له أثر كبير في ارتياحه النفسي وسكونه في بيته وانعكاس ذلك على تعلمه وتحصيله.

٣- أن على من هو في موضع القدوة إزالة الشك والشبهة التي قد تعلق بذهن المتعلم، وأفضل الوسائل هي التطبيق العملي من قبل المتعلم نفسه فترسخ العلم في عقله وقلبه، ويتضح ذلك من أمر مالك لضيفه العراقي بحك وإزالة الصورة التي في بيته بعد بيان عذره في وجودها.

٤- أن على العالم أن يبتعد عن أي مكان قد يقلل من قدره ومكانته بين الناس ولو ضحى بماله، فالمال أهون من ضياع مكانته بين الناس التي من شأنها أن تجعلهم يأخذون بنصحه ويقتدون به.

طلبه للعلم:

كان أبو الإمام مالك وجدُّه وأبو جده من العلماء الجامعين لحديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المهتمين بالتفقُّه بدين الله، ومع ذلك فقد كان الإمام مالك في مطلع حياته يتلهَّى بتربية الحمام، حتى إذا امتُحن بسؤال كان جوابُه خطأً؛ لأنه أجاب بغير علم. يقول الإمام مالك ــ رحمه الله ــ: «كان لي أخ في سنِّ ابن شهاب فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألهتك الحمامُ عن طلب العلم، فغضبتُ وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين، وفي رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كُمِّي تمراً وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا: إنه مشغول. وكان يقول: وكنت آتي ابن هرمز بكرةً فما أخرج من بيته حتى الليل»[ابن فرحون،١٤١٧هـ، ص٦٣].

وهكذا جعل يجدُّ في العلم، ولم يعد يشغلُه عنه شاغل، وكان يُرى في هذه الفترة يتتبع ظلال الشجر ليتفرغ لما يريد، حتى قالت أخته لأبيه: هذا أخي لا يأوي مع النَّاس، فقال: يا بنيَّة، إنَّه يحفظ حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم[الدقر،١٤١٩هـ، ص٤٧].

وكان من حرصه الشديد على تلقُّف العلم من الكبار – في سنِّه هذه – يحتال لنفسه ليُفيد حديثاً أو رواية أو فقهاً، يقول الإمام مالك: «كنت آتي نافعاً نصفَ النَّهار، وما تظلُّني الشجر من الشَّمس أتحيَّن خروجه، فإذا خرج أدعُه ساعةً كأنِّي لم أره، ثم أتعرَّضُ له، فأسلِّم عليه، وأدعُه، حتى إذا دخل أقول له: كيف قال ابن عمر

في كذا وكذا؟ فيجيبني، ثم أحبس عنه، وكان فيه حِدّة. وقال ابن القاسم :أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نَقَضَ سقف بيته فباع خشبه، ثم مالت عليه الدنيا بعد»[ابن فرحون،١٤١٧هـ، ص٦٣].

وكان لأمه في هذا البدء ما يكون للأمهات دائماً، في بدء هذا الدور الذي يجاوز فيه الابن دور الطفولة، ويأخذ أخذ الكبار، وهو أن تلبسه وتهيئه لهذا التلقي، في مدرسة أو مسجد، أو ما يكون، فلما قال مالك لأمه سائلاً: أذهب فأكتب العلم؟ قالت: تعال فالبس ثياب العلم؛ فألبسته ثياباً مشمرة، ووضعت قلنسوة طويلة على رأسه، وعممته فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن... ولعلها منحته نصيحة ثمينة، فقالت له بعد أن ألبسته: اذهب إلى ربيعة – تعني ربيعة الرأي – "فتعلم من أدبه قبل علمه"، فكانت تقول من وراء هذا الماضي البعيد بلسان كل أم طيبة: الأدب – أي الخلق – فضلوه على العلم[الخولي، ب.د، ص٧٩].

وقد رُئي مالك في مجلس ربيعة هذا وهو حدث السن، يمكن ألا يكون قد جاوز العاشرة من سنه بكثير؛ لأنه رئي في حلقته وعليه شنف ــ كالقرط يعلق بأعلى الأذن ــ لكن لا ننسى أن لهم تقليداً في إسماع الصبيان المميزين الحديث من شيوخه قبل أن تكون فيهم صلاحية لتلقي الرواية ليعرفوا أشياخاً من المتقدمين فيكون لهم سند عال، فيمكن أن تكون رؤية مالك في حلقة ربيعة، وعليه شنف، من هذا النوع في ترك الصبيان أول التمييز يغشون مجالس المحدثين، وقد دخل مالك "الحلبة" وتهيأ للتكون العلمي[الخولي، ب.د، ص ص٧٩-٨٠].

ومن أخبار الإمام مالك في طلب العلم أن ابن شهاب كان يحرض تلاميذه على أن يكتبوا ما يستمعون خشية أن يضيع عليهم ما استمعوا إليه، وهذا مالك يذهب إليه والألواح في يده يكتب فيها ما يسمع ويضبط، ولا يمنعه ذلك من حفظ ما كتب ووعيه، حتى أن ابن شهاب يجبذ منه الألواح، ثم يختبره فيما ألقاه عليه فيجده قد وعاه كاملا غير منقوص، فوصفه بأنه من أوعية العلم[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٩].

قال بن أبي أويس: سمعت مالكاً يقول: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه"[ابن فرحون،١٤١٧هـ، ص٦٤].

ويمكن القول أن علم الحديث يعتمد على أمرين، وما سواهما تبع لهما: أولهما: انتقاء الرجل الثَّبت الصادق الضابط المتقن في جميع السند، وثانيهما: اتصال السَّند إلى أن يبلغ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وكان الإمام مالك أولَ من دقق بالرجال، بل بالغ بالتدقيق والانتقاء، وقد يكون أول من حاول وضع أصول علم الحديث، وكان له في نقده الرجال عجائب، وقد يكون الرجل ديِّناً صيِّناً لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً فلا يحدِّث عنه؛ لأنَّه ليس من أهل هذا الشأن، وكان حَسْب الرجل ليكونَ ثقة عند العلماء أن يرويَ عنه مالك، وكان الشكُّ في الرجل يعني تركَه عند مالك[الدقر،١٤١٩هـ، ص٨٠].

وأما مكان الدراسة: فهو المسجد أصلاً، يعرف فيه للشيخ مكان يعتاد إلقاء دروسه فيه؛ وقد يكون الدرس في منزل الشيخ ومأواه، لأن الطلبة في ذلك الحين مريدون، ينزل الأساتذة منهم منزل الرائد في الطريق، أو المسلّك كما يقول الصوفية، فليس بينهم وبين طلابهم المريدين حجاب؛ فمالك يقصد بيوت أشياخه، طالباً كما سيظهر فيما بعد أن طلابه يقصدونه في بيته، ويستضيفهم، ويقوم على خدمتهم، في تواضع، ورحابة صدر[الخولي، ب.د، ص٨٤].

وزمان الدراسة: هو الوقت الذي يفضله الشيخ، فيجلس نافع ــ من أشياخ الإمام مالك ــ مثلاً بعد الصبح، ويجلس غيره في هذا الوقت، كما كانت الدراسة في الأزهر الأول، تبدأ بعد صلاة الصبح، وتكون بين المغرب والعشاء؛ وقد يأتي الطالب ــ مالك ــ شيخه ــ نافعاً ــ هذا وما تظله الشجر من الشمس، كما نراه يأتي ابن هرمز من بكرة، فما يخرج من بيته حتى الليل، وكما نراه يزاحم على باب ابن شهاب الزهري، وكان وزملاؤه يزدحمون على درج بابه، وكانت لبابه عتبة حسنة، يجلس عليها مالك ورفاقه، ويتدافعون إذا دخلوا على الشيخ حتى يسقط بعضهم على بعض[الخولي،ب.د، ص٨٤].

كما أن مالكاً يحاول الانفراد بشيخه ابن شهاب هذا يوم العيد نفسه، فيقول: شهدت العيد، فقلت: هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب. فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من على الباب: فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر "مالك" قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى

منزلك؟ قلت: لا؛ قال: هل أكلت شيئاً؟ قلت: لا، قال: فاطعم، قلت لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت تحدثني سبعة عشر حديثاً... إلى آخر الخبر الدال على نوع العلاقة بين الأساتذة والطلاب، ونوع معاملتهم لهم؛ **والدال كذلك على حرص مالك على فرص لقاء الأشياخ**، وتلطفه لذلك أو احتياله له حتى يجعل في كمه تمراً يعطيه صبيان ابن هرمز ليقولوا لمن يسأل عنه: إن الشيخ مشغول؛ ويفهم من هذا أنه يريد إطالة وقته مع الشيخ، والانفراد به؛ فقد روي: أنه كان يأتي ابن هرمز من بكرة، فما يخرج من بيته، حتى الليل كما تقدم[الخولي،ب.د، ص٨٥].

ويمكن الاستنتاج من كثير من هذه الأخبار السابقة، عن أوقات لقاء الطلاب لأساتذتهم؛ الدلالة الاجتماعية والتاريخية لهذه الأخبار، فإنما هي ترجمة "لمالك" بما في تلك الترجمة من تجارب حيوية، وهذه الأخبار تشير إلى شيء من موضع العلة في الحياة التعليمية الراهنة بفقد مثل هذه العلاقة بين الطلاب وأساتذتهم[الخولي، ب.د، ص ص٨٥-٨٦].

تم ما في الدلالة التاريخية لهذه الأخبار من رسم الصورة التي كان يجري عليها اختيار الطلاب لأساتذتهم، وتوزيع وقتهم معهم وبينهم؛ وبهذا الاختيار تتأسس تلك العلاقة التي كانت بين الطلاب والأساتذة لأنهم ليسوا أساتذة الجدول والحجرة، وأصحاب كرسي المادة؛ وإنما هم أساتذة معرفة الطلاب، وحرصهم، وشعورهم التقديري نحوهم، ومن هذا يلاحظ أن أساتذة تلك الجامعة المسجدية لم يكونوا أساتذة وظيفة، بل كانوا في تاريخ عصرهم أساتذة من يفيد منهم، ويتلقى عنهم، ويعرف لهم عليه مشيخة، ويحسبهم فيمن أخذ عنهم وروى[الخولي، ب.د، ص٨٦].

ويرى الباحث أن الإمام مالكاً أخذ نفسه بالجد في بداية طلبه للعلم، فوصل تلك المنزلة الرفيعة، "ومن كان له بداية محرقة، كان له نهاية مشرقة". نعم لقد بدأ الإمام مالك بتربية نفسه، ولم يتهاون معها ويطلب لها الراحة، فاستحق أن يكون إماما عظيما، وبعد أن حصل على ما يريد من العلم أخذ في تربية غيره، وكذلك قوله لطلابه: "كنت آتي نافعاً نصفَ النَّهار وما تظلُّني الشجر من الشمس أتحين خروجه" فهو بهذا يعطيهم نموذجا في الصبر على طلب العلم، وتحمل المشاق من أجله،

وكذلك اختيار الوقت المناسب، وكذلك اختيار الطريقة المناسبة لكل شخصية بما يناسب نمطها ومزاجها.

فضله:

كان الإمام مالك ذا فضل عظيم؛ فلقد كثر الثناء عليه في كل ما هو أهل له كثرةً سبق بها أشياخه وأمثاله؛ ذلك لأنه كان في علمه، واجتهاده، وحديثه، وكثير من خصاله وحيدَ دهره في مدينة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ. يقول الذهبي: وقد اتفق لمالكٍ مناقبُ ما علمتها اجتمعتْ لغيره: أحدُها طولُ العمر، وعلُّو الرواية، وثانيها الذهنُ الثاقب، والفهمُ وسعةُ العلم، وثالثها اتفاق الأئمة على أنه حُجةٌ صحيحُ الرواية، ورابعها: تجمُّعهم على دينه وعدالته واتباعه السُّنن، وخامسُها: تقدُّمه في الفقه والفتوى وصحةُ قواعدِه[الذهبي، د.ت، ص٢١٢].

قال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ:" إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "حديث صحيح[أبو داود، د.ت، رقم:٤٢٩١]. فمن تدبر هذا الحديث يجد أنه ينطبق انطباقاً كاملاً على الإمام مالك ــ رحمه الله ــ، فقد ولد سنة ٩٣ للهجرة، وتوفي سنة ١٧٩، فملأ بعلمه وفضله قرناً كاملاً من الزمان، وأخذ عنه العديد من العلماءِ والفقهاءِ من المشارقة والمغاربة[وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية،١٤٠٠هـ، ص١٥].

قال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم: "يُوشكُ أن يَضربَ الناسُ أكبادَ الإبلِ يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم، وفي رواية أفقه، من عالم المدينة" حديث حسن[الترمذي، د.ت، رقم:٢٦٨٠]. وقد اختلف الناس بمن هو المقصود بهذا الحديث، قال الترمذي عن ابن عيينة أنه قال في هذا حين سئل من عالم المدينة فقال: مالك بن أنس[الترمذي، د.ت، ص ٦٠٤].

وقال الرسول ــ صلى الله عيه وسلم ــ:"لا يزالُ أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"[مسلم،١٤١٢هـ،١٩٢٥/٥٣/٣٣]. وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم: "لا يزالُ أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"[الأسفرائني، ١٤١٩هـ، ج٤، رقم:٧٥١١]، لأنه وقع على نحو ما أخبر به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وقد ظهر بالواقع أن الحق الذي

أخبر به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في جميع بلاد المغرب هو السنة والدين الذي ظهر في بلاد المغرب إلى هذا الزمن، وفيه خصوصية لمالك ومذهبه، لأنه ليس في بلاد الغرب كلها سودِها وبيضِها شافعي ولا حنفي ولا حنبلي، بل كلهم على مذهب مالك لا يُشارَك في ذلك[الراعي، ١٩٨١م، ص١٣٧].

وقد أثنى عليه كثير من شيوخه وأَنْداده وأصحابه. فمن شيوخه الذين أثنوا عليه: ابنُ شهاب الزهري المتوفَّى سنة أربع وعشرين ومائة وهو من كبارهم قال لمالك: "أنت من أوعية العلم"، "وإنك لنعم مستودع العلم". ومن شيوخه ابن هرمز المتوفَّى سنة ثمان وأربعين ومائة حيث قال يوماً لجاريته: من بالباب؟ فلم تر إلا مالكاً، فذكرت له ذلك، فقال: ادعيه، "فإنه عالم الناس"، وكان لا يجاوز الخامسة والعشرين من عمره[الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٥٦].

وقد أثنى على مالك من أمثاله كثير، منهم: الأوزاعي المتوفَّى سنة سبع وخمسين ومائة، فإنَّه إذا ذَكَر مالكاً قال: عالمُ العلماء وعالمُ أهل المدينة. وقيل للأوزاعي: كيف رأيت مالكاً؟ قال: رأيتُ رجلاً عالماً[الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٥٧].

وقال سفيان بن عيينة المتوفَّى سنة ثمان وتسعين ومائة: "من نحن عند مالك؟ إنما كنَّا نتبع آثار مالك، ننظر إن كان أخذ عن شيخ كتبنا عنه وإلا تركناه"[الزواوي،١٤١١هـ، ص٨٩].

وممن أثنى عليه من تلاميذه وهم كثر، ويذكر الباحث منهم: الإمام الشافعي المتوفَّى سنة أربع ومائتين، ومما قاله في مالك: "إذا جاءك الأثر عن مالك فشُدَّ به يدك"، وقال: "إذا جاء الخبر فمالكٌ النجم". وقال: "إذا ذُكر العلماء فمالكٌ النجم"، ويريد الشافعي بالنجم – على ما حكاه الزواوي – قوله تعالى:M... / 1 0 L [النحل: ١٦]. ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك، لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك، وقال: مالكُ بن أنس معلِّمي، وفي رواية: أستاذي، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ من مالك، وعنه أخذنا العلم، وإنما أنا غلام من غلمان مالك، وقال: جعلتُ مالكاً حجة فيما بيني وبين الله[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٢٩]. وقال الشافعي أيضاً: "ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله عزَّ وجلّ، أنفع من موطأ مالك"[الزواوي،١٤١١هـ، ص١٠٦].

وقال ابن مهدي: أئمَة الناس في زمانه أربعة: سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحمّاد بن زيد بالبصرة. وقال: ما رأيتُ أثبت عقلاً من مالك. وقال عبدالله بن المبارك المتوفَّى سنة إحدى وثمانين ومائة: لو قيل لي اختْـر للأمّة إماماً لاخترتُ لها مالكاً[الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٦٢].

وممّن أثنى عليه من غير ما تقدّم ممّن لم يأخذ عنه ولم يرَه يحيى بن معين المتوفَّى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، فقد قال: كان مالك من حُجج الله على خلقه، إماماً من أئمةِ المسلمين، مجمعاً على فضله. يقول: مالكٌ نبيلُ الرأي، نبيلُ العلم؛ أخذ المتقدِّمون عن مالك ووثَّقوه، وكان صحيحَ الحديث، وكان يقدم أصحاب الزهري[الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٦٢].

ومنهم الإمام أحمد بن حنبل المتوفَّى سنة إحدى وأربعين ومائتين قال: رحمةُ الله على مالك، القلبُ يسكن إلى حديثه، وإلى فُتياه، وحقيقٌ أن يسكُن إليه، مالكٌ عندنا حجة لأنَّه شديد الاتِّباع للآثار التي تصحُّ عنده[الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٦٢].

ومنهم محمد بن إسحاق الثقفي السرَّاج حيث قال: " سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن أصح الأسانيد فقال: مالك عن نافع عن ابن عمر"[المقدسي،١٤١٦هـ، ص٨٧].

ومنهم النسائي أحمد بن شعيب المتوفَّى سنة أربع وثلاثمائة، قال: ما عندي بعد التابعين أنبلُ ولا أجلُّ من مالك، ولا أوثقُ منه، ولا آمنُ على الحديث منه، ولا أقلُّ رواية عن الضعفاء، ما علمناه حدَّث عن متروك إلا عبدالكريم – يعني أبا أميّة- [ابن حجر، ١٣٢٧هـ، ج١٠، ص٩].

موقفه من العلم والزهد:

للإمام مالك موقف من الزهاد والعباد، ومن ناحية أخرى يمكن القول أن للزهاد والعباد موقفاً منه، إنه الخلاف التقليدي بين الفقهاء والزهاد[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤٠].

كان القرن الثاني حافلاً بالفقهاء من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وابن شهاب الزهري وابن هرمز ونافع وربيعة الرأي وعمرو بن دينار ومحمد بن الحسن وأبي يوسف وعبدالرحمن بن

مهدي وجعفر الصادق والليث بن سعد ويحيى بن سعيد القطان وشعبة بن الحجاج وابن أبي ذئب ووكيع بن الجراح وغيرهم من هذه الصفوة الرفيعة القدر والمقام الذين يصعب إحصاؤهم، وليس واحد منهم مجالاً لشك في علمه أو مثاراً لطعن في دينه[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤٠-٤١].

ولقد حفل القرن الثاني أيضاً بعدد كبير من أئمة الزهاد من أمثال عبدالله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار، وداوود بن نصير الطائي، ومسعر بن كدام، ووهب بن الورد وغيرهم[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤١].

إن الزهد والتعبد أمران عظيمان يقربان الإنسان من خالقه، ويطهران قلبه وروحه، وقد كان الزهاد ذوي سلطان بين الناس، بل ويمكن القول أصحاب مملكة، وقد رأت جارية في قصر الرشيد في مصيفه بالرقة موكب الخليفة وهو قادم من بغداد، وبعد ساعات قليلة رأت موكباً هائلاً تتدافع الناس فيه وتتلاطم أمواج البشر، فسألت عن الأمر فقيل لها: إن عبدالله بن المبارك يمر في الطريق إلى الرباط في الثغور، فسألت على الفور: هذا هو الملك الحقيقي لا ملك هارون[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤١].

ولكن هل معنى ذلك ألا يكون هناك فقهاء وألا يوجد محدثون، وهل الزهد خير من العلم، إن مالكاً يعرض للموقف ويقول: إن الاشتغال بالعلم ليس أقل من الانقطاع للعبادة، بل إن بعض الأئمة ذهب إلى أن مجلس العلم خير من صلاة التطوع والسنن[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤١].

ويرى الإمام مالك أن الإنسان يختار طريقه علماً أو عبادة، ويرجو أن يتقبل الله عمل هذا وعلم ذاك، فقد كتب رداً مهذباً متواضعاً على رسالة جاءته من زاهد يدعوه إلى الانفراد والتعبد قال فيه: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربَّ رجل فُتِح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر[الخولي،١٣٧٠هـ، ص٢٤٥].

بل هو يرى الزهد يشغل عن الحديث، ويقول: "أدركتُ بهذه البلدة أقواماً لو استسقوا بهم القطر لسقوا، قد سمعوا العلم والحديث كثيراً، وما حدَّثتُ عن أحدهم شيئاً، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن ــ يعني الحديث والفتيا ــ يحتاج إلى رجل معه تقى وورع، وصيانة وإتقان، وعلم وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه، وما يصل إليه غدا، فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به، ولا هو حجة، ولا يؤخذ عنه"[الخولي،١٣٧٠هـ، ص٢٤٥].

وقد بلغ الأمر بالإمام مالك في بعض سلوكه أن يجعل من الأناقة سبباً لنفي مظاهر التفاخر بالعبادة، فكثير من الناس يحبون أن يعرفوا بكثرة الصلاة من علامة بجباههم تسمى الزبيبة يساعد على ظهورها السجود على شيء خشن، وليس كل صاحب زبيبة مفاخراً بها جاعلاً منها سبباً للإعلان عن تقوى ذاته وصلاح أمره، بل هي على الأغلب تنبت في جباه الصالحين الركع السجود، وأما علاقة مالك بهذا الأمر فهو أنه كان يحمل في كمه منديلاً مطوياً على أربع طاقات، فإذا حان وقت الصلاة نشره وسجد عليه، فقيل له في ذلك، فقال: أجعله لئلا يؤثر الحصى في جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٤٠-٤٢].

وقال الإمام مالك أيضاً: "ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يُرى أثر نعمته عليه، وخصوصاً أهل العلم، ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إجلالاً للعلم". وقوله: "التواضع في التقى والدين لا في اللباس؛ إنا كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس"[الخولي،١٣٧٠هـ، ص٢٤٤].

ونستخلص من رد الإمام مالك على الرسالة التي جاءته من الزاهد في قوله: "إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ....إلخ"، بعض الأفكار التربوية منها: إنه في حالة الرد على المخالف البدء بالنقاط المتفق عليها، ثم بيان الإيجابيات عند الطرف المخالف، ثم بيان الحجة بالبرهان العقلي والعلمي يصاحب ذلك ثقته بنفسه وقناعته باختياره.

محنته:

كانت التيارات السياسية في عهد الإمام كثيرة، هي التي اضطرت الإمـــام أن يتحفظ، ولهذا وُصف مالك بأنه كان أعظم الخلق مروءة، وأكثرهم صمتاً، متحفظـــاً بلسانه، من أشد الناس مداراة للناس، مع هذا نزلت به محنة في العصر العباسي في عهد أبي جعفر المنصور، وقد اتفق المؤرخون على نزول هذه المحنة، وأكثر الرواة على أنها نزلت سنة ١٤٦هـــ، وقيل سنة ١٤٧هـــ[الندوي،١٤٢٣هـــ، ص٦٥-٦٦].

وقد اختلفوا في سبب المحنة على أقوال كثيرة: منهم من قال: إن مالكاً كان يجاهر بمخالفة ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في نكاح المتعة ويقول: إنه حـــرام، وابن عباس هو رأس أسرة خلفاء بني عباس. وهذا الخبر لم يذكره الثقـــات مـــع أنَّ نكاح المتعة حرام بإجماع الأمة وفيه ما فيه[الندوي،١٤٢٣هـــ، ص٦٦].

وقيل: إن مالكاً – رحمه الله – كان يقدم عثمان علـــى علـــي – رضـــي الله عنهمـــا، فأغرى الطالبيون به والي المدينة، وهذا الخبر جاء في المدارك ففيـــه مـــا نصه "قال – أي ابن بكير - : ما ضرب مالك إلا في تقديمه عثمـــان علـــى علـــي، فسعى به الطالبيون حتى ضرب. فقيل لابن بكير: خالفت أصحابك، هم يقولون فـــي البيعة، قال: أنا أعلم من أصحابي". وهذا الخبر فوق مخالفته المشـــهور، ومخالفـــة أصحاب راويه له – في متنه- ما يدل على بطلانه، إذ إن العلويين كانوا فـــي ذلـــك الإبان مبغضين إلى الخليفة ووالِيه؛ لأن سنة ١٤٦هـــ وهي سنة المحنة كانت الســـنة التالية لخروج محمد بن عبدالله " النفس الزكية" بالمدينة وقتله، فما كـــان للطـــالبيين شأن، وما كان أبو جعفر ليؤذي فقيهاً لمثل هذه الفتيا في ذلك الزمان، فيضربه مـــن أجلها[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص ص٦٨-٦٩].

وأصح الروايات وأشهرها في سبب المحنة أنه كان يحدِّث بحديث: "ليس على مستكرَه طلاق". وكان الوالي على المدينة حينئذ هو "جعفر بن ســـليمان" ابـــن عـــم الخليفة المنصور، فسعى إليه الوُشاة يقولون له: إن مالكاً يفتي بأنه لا يمـــين علـــى مستكره، وهذا ما معناه أن ما أبرمتموه من بيعة الناس بالاســـتكراه ينقضـــه مالـــك بفتواه. وأراد جعفر أن يبادر بالبطش بمالك، وليس بيده بينة إلاَّ السعاة فنهاه بعـــض ناصحيه عن التسرُّع، وقال له عن مالك: إنه أكرم الناس على الخليفة، فـــدسَّ إليـــه

جعفر من يسألونه عن رأيه في الموضوع، فأبدى رأيه بصراحة فضربه[الندوي،١٤٢٣هـ، ص٦٧].

قال ابن جرير المؤرخ: إنَّ مالكاً كان بتحديثه بهذا الحديث يحرِّض على بيعة محمد بن عبدالله، فقد روي أنَّ مالكاً أفتى الناس بمبايعته، فقيل له: إنَّ في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما كنتم مكرهين، وليس لمكره بيعة، فبايعه – أي محمد بن عبدالله – الناس عند ذلك عن قول مالك، ولزم مالك بيته[الندوي،١٤٢٣هـ، ص٦٧-٦٨].

قال ابن خَلِّكَان: وسُعِي به إلى جعفر بن سليمان بن عبدالله بن العباس ــ رضي الله عنهما ــ وهو ابن عم أبي جعفر المنصور، وقالوا له: إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به وجَرَّده وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت كتفه، وارتكب منه أمراً عظيما، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة، وكأنما كانت تلك السياط حليًّا حلِّي به[ابن خلكان، ١٤١٤هـ، ص١٣٧].

قال الذهبي: "هذه ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين"[الذهبي،١٤٠٢هـ، ج٨، ص٨١].

واختلف في مقدار الضرب من ثلاثين إلى مائة، ومدت يداه حتى انخلعت كتفاه، وبقي بعد ذلك مطابق اليدين، لا يستطيع أن يرفعهما، ولا يسوي رداءه. ويظهر أنَّ أهل المدينة عندما رأوا فقيهها وإمامها ينزل به ذلك النكال سخطوا على بني العباس وولاتهم، وجعل الحكام يحسون بمرارة ما فعلوا، وخصوصاً أبا جعفر المنصور، وإنه لم يكن في ظاهر الأمر ضارباً ولا آمراً بضرب، ولا راضياً عنه، لذلك عندما جاء إلى الحجاز أرسل إلى الإمام مالك يعتذر إليه[الندوي،١٤٢٣هـ،ص٦٨-٦٩].

أَمِثْلُ مالك يضرب وقد ملأ الدنيا علماً وحديثاً وفقهاً؟! أمثله يُضرب وقد مهَّد الأحكام ليحكم فيها النَّاس والحكّام؟ أمثله يضرب وهو العالم الجليل ذو القدر الكبير؟... رجل في جوار ــ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يأمر بسنته، ويدافع عن صحبه، وينشر حديثه، أَمِثْلُ هذا يضرب ويخلع كتفه؟! وهو الذي يحمل شريعة

الله التي من أجلها ولحمايتها والدعوة إليها حكمتم، فما بالكم تؤذونه إذا صدع بالحق ونطق بالشرع؟![الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٧٢].

وفي الحلية عن ابن وَهْب أنَّ الإمام مالكاً لما ضُرب حُلِقَ وحُمِلَ على بعير فقيل له: ناد على نفسك قال: فقال: ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، وأنا أقول: طلاق المكره ليس بشيء، قال: فبلغ جعفر بن سليمان أنَّه ينادي على نفسه بذلك فقال: أدركوه، أنزلوه لم يخف مالك أن يقول ما يعتقد، حتى في هذه الحال التي يريد جعفر بها تشهيره لا يغيِّر ما اعتقد من فتواه مهما يبلغ به التنكيل والتَّشهير والتعذيب، وهكذا القويُّ بالله لا يمنعه عن قول الحق، أو ما يعتقد أنَّه الحق، كلُّ شيء حتى الموت. ويقال: إنَّ أبا جعفر المنصور لم يأمر بضرب مالك، ويقسم على ذلك قائلاً: والله الذي لا إله إلا هو، ما أمرتُ بالذي كان ولا علمته[الدقر،١٤١٩هـ، ص٣٧٣].

والخبر كما جاء على لسان مالك – رحمه الله – لنعرف مقدار إجلال أبي جعفر له وعظم مالك في سماحته كما كان عظيماً في مهابته – رحمه الله ــ، وها هو ذا الخبر، حيث قال: "لما دخلت على أبي جعفر وقد عهد إليَّ أن آتيه في الموسم قال لي: والله الذي لا إله إلاَّ هو، ما أمرت بالذي كان، ولا علمته، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، وإني أخالك أماناً لهم من العذاب، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، وقد أمرت بعد والله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب (الإكاف الصغير على سنام البعير)، ويضيق محبسه والاستبلاغ في امتهانه، ولا بدَّ أن أنزل به من العقوبة ما نالك منه، فقلت: عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقرابته منك، قال: فعفا الله عنك ووصلك[الندوي،١٤٢٣هـ، ص٦٩].

قال أبوالوليد الباحي: لما حجَّ المنصور أقاد مالكاً من جعفر بن سليمان وأرسله إليه ليقتص منه، فقال: أعوذ بالله، والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلاَّ وأنا أجعله في حِلٍّ من ذلك الوقت؛ لقرابته من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم. وقال الدَّراوَرْدِي: سمعته يقول حين ضربه: "اللهُمَّ اغفر لهم فإنهم لا يعلمون"، وقيل:

إنه لما ضرب حُمل مغشيّاً عليه فدخل الناس فأفاق وقال: أشهدكم أني قد جَعَلت ضاربي في حل[ابن فرحون،١٤١٧هـ، ص٧٧].

لقد خشي أوائل الخلفاء العباسيين أن تُزَلْزِلَ ملكهم فتوى مالك، فتوى واحدة "ليس على مستكره طلاق"، فقاموا وقعدوا، وهنا تبرز قوة مالك، أقض مضاجع العباسيين الأول، وقلقل ملكهم بكلمة، بفتوى، وقد كانوا أمضى قوة من ملوك الأرض زمنهم، هنا يظهر سلطان العلم والشرع في مالك، وأنه فوق عظم الخلافة والملك، ولولا أنَّ الناس تخشى بطش السلطان وبأسه لطُرِدَ السلطان وبقي العالم[الدقر، ١٤١٩هـ، ص٣٧٣].

أبرز تلامذته:

عاش الإمام مالك في المدينة، وهي بيئة يقصدها المسلمون من أماكن شتى، وعُمِّر كثيراً؛ لذلك روى عنه كثيرون من بلاد مختلفة؛ فقد روى عنه رواة من الحجاز واليمن والعراق وخرسان والشام ومصر والمغرب والأندلس. ويرى الذهبي أن الإمام مالكاً أكثر الحفاظ رواة؛ حيث قال الذهبي: "ما علمت أحداً من الحفاظ روى عنه عددٌ أكثر من مالك"[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٢٣٤].

وقد أَلَّف بعض العلماء مؤلفات مستقلة في أسماء الرواة عن مالك؛ فمن هؤلاء العلماء من بلغ عدد الرواة عنده نحو ألف رجل، ومنهم من بلغ العدد عنده أزيد من ألف وثلاثمائة رجل، ومنهم من بلغ العدد عنده ألفاً وأربعمائة رجل. ولو أخذنا بأقل هذه الأعداد لدل على كثرة الرواة عن مالك كثرة عظيمة، وما ذلك إلا رغبة التلاميذ فيه من جهة وبذله للعلم من جهة أخرى، والرواة عن مالك أصناف؛ فمنهم من شيوخه، ومنهم من كان من كبار الأئمة ممن كان له مقارباً في الوفاة، ومنهم من كان من تلاميذه، وهم الكثرة الكاثرة[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص ص ٢٣٤-٢٣٦].

وقد ألف في حصر تلامذة الإمام مالك المؤلفات، ولن يتناول الباحث هنا إحصاءهم، بل سيكتفي بذكر سيرة مختصرة لأشهرهم، ومن كان له الأثرُ الظاهر في

حياته وفي نشر المذهب، وهم: عبدالله بن وهب، وأشهب بن عبد العزيزالقيسي، وعبدالرحمن بن القاسم العتقي، وعبدالله بن مسلمة القعنبي، وقتيبة بن سعيد البلخي.

١) عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي

أحد أقرب أصحاب مالك إليه، فقد لزم مالكا أكثر من عشرين سنه، وقضى حياته كلها طلبا للعلم وسماعا له، وعطاء للعلم وتسجيلا له، واسمه كاملا عبد الله بن وهب بن مسلم الفقيه المالكي المصري المولود في الفسطاط سنه ١٢٥هـ المتوفى بها سنة ١٩٧، راض نفسه على حب العلم والتفرغ له والرحلة في سبيله حتى صار كبير أصحاب مالك، ولقبه الإمام سفيان بن عيينة بشيخ أهل مصر، وكان مالك يلقبه بالفقيه. وكان يسمح له بالكتابة عنه ثم لا يجد مانعا من مراجعة ما كتبه عليه، ولذلك كانت الرحلة إليه في حياة مالك وبعد موته. فلم يكن في استطاعته كل محب لفقه مالك أن يسافر إليه في المدينة، فكانوا يرحلون إلى ابن وهب في مصر. ومن ثم كان ابن وهب أحد ناشري المذهب في مصر وفيما هو غرب مصر من الأصقاع[الشكعة،١٤١٨هـ، ص١٣٩].

قال هارون بن عبد الله الزهري: كان الناس بالمدينة يختلفون في الشيء عن مالك فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألوه عنه، وقال الحارث بن مسكين: شهدت ابن عيينة يقول: هذا عبد الله بن وهب شيخ أهل مصر، وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة نظرت في نحو ثلاثين ألفا من حديث ابن وهب بمصر وغير مصر لا أعلم أني رأيت له حديثاً لا أصل له، وهو ثقة. وقال لي سحنون: كان ابن وهب قد قسم دهره أثلاثا؛ ثلث في الرباط، وثلث يعلم الناس، وثلث في الحج. وقيل حج ستا وثلاثين حجة[ابن حجر، ١٣٢٦هـ، ج٦، ص ص ٧٤،٧٢].

قال أحمد بن صالح ــ وهو ممن روى عن ابن وهب ــ: ما رأيت أحداً أكثر حديثاً منه، حدَّث بمائة ألف حديث وقد وقع عندنا سبعون ألف حديث. وقال خالد بن خداش: قرئ على ابن وهب كتابه في أهوال القيامة فخرّ مغشياً عليه فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام. وكان مالك يكتب إليه ــ إلى عبد الله ــ مفتي أهل مصر، ولم يفعل هذا مع غيره، وذكر هو وابن القاسم عند مالك فقال: ابن القاسم فقيه وابن وهب

عالم. وقال أبو يزيد بن أبي الغمر: كنا نسمي ابن وهب ديوان العلم. وقال أبو طاهر بن عمرو جاء نعي ابن وهب ونحن في مجلس ابن عيينة فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، أصيب المسلمون به عامة وأصبت به خاصة. قال النسائي: ابن وهب ثقة ما أعلمه روى عن ثقة حديثا منكرا. وقال يونس: مات في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة ــ رحمه الله تعالى ــ[الذهبي، د.ت، ص ص٣٠٥-٣٠٦].

وقد عُرف ابن وهب بكثرة رواية الأحاديث، مما جعل الأمر يختلط عليه في كثير منها لولا الله ثم أن مالكا في الحجاز والليث في مصر كانا يأخذان بيده ويصوبان له الرواية والمتن، وهو يقرر ذلك بنفسه في قوله: "لولا أن الله أنقذني بمالك والليث لضللت"، فقيل له: كيف ذلك؟ قال: أكثرت من الحديث فحيرني، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث، فيقولان خذ هذا، ودع هذا ولعل ذلك هو السبب في قول أحد كبار الجيل الثاني من مالكية مصر فيه وهو أصبغ: ابن وهب أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار إلا أنه روى عن الضعفاء[الشكعة،١٤١٨هـ، ص١٣٩].

٢) أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري الجعدي

قيل: إن اسمه الحقيقي مسكين وأشهب لقب ، وهو مصري الميلاد والوفاة، فكان مولده سنة١٥٠هـ وهي السنة التى ولد فيها الشافعي في غزة، وكانت وفاتهما في سنة وبلدة واحدة هي "الفسطاط" وذلك سنة ٢٠٤هـ غير أنه مات بعد الشافعي بشهر، وقيل: بل بثمانية عشر يوما[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص١٤١].

قال عنه الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ:"ما رأيتُ أفقهَ من أشهب". وانتهت إليه الرئاسة بمصر - بعد ابن القاسم، وسئل سحنون عن ابن القاسم وأشهب أيهما أفقه؟ فقال: "كانا كفَرَسَيْ رِهَان! وربما وُفق هذا وخُذل هذا، وربما خُذِل هذا ووفق هذا". وقال: حدّثني المتحرّي في سماعه: أشهب وما كان أصدقه وأخوفه لله! وقال: كان وَرِعاً في سماعه، وعدد كتب سماعه عشرون كتاباً. وقال ابن عبدالبر: لم يدرك الشافعيَّ بمصر من أصحاب مالك إلا أشهبُ وابنُ عبد الحكم. وأخذ عن الشافعي هو وابن عبد الحكم[ابن فرحون، ١٤١٧هـ،ص١٦٢].

وسبيل النبوغ في العلم دائما واحدة، وهي كثرة الشيوخ الثقاة وحسن الأخذ عنهم والإكثار من التفرغ، ثم التخصص على شيخ بذاته، وقد كانت ملازمته لمالك، رحل صوبه ولزمه، وجلس إليه، وأخذ عنه من العلم ما أهله لأن يكون واحدا من أكبر أصحابه، يشترك في حمل المذهب بعده إفتاء وتدوينا وتطويرا ونشرا، وكان أشهب صاحب علم كثير، وقد ألف عددا من الكتب النفسية، له كتاب المدونة وتسمى مدونة أشهب أو كتب أشهب، وله كتاب الاختلاف في القسامة، وكتاب في فضائل عمر بن عبد العزيز[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص ص١٤١-١٤٤].

٣) عبدالرحمن بن القاسم العتقي بالولاء المصري

صحب مالكاً عشرين سنة وروى عنه، وتفقه عليه. وقال يحيى بن يحيى: "كان ابن القاسم ... أعلمهم بعلم مالك، وآمنهم عليهم"، وإليه يرجع الفضل الأكبر في حفظ كثير من آراء مالك الفقهية التي تضمنتها المدونة، وقد اشتهر أيضاً بالزهد، والورع. ينسب إليه عدة كتب، منها : كتاب عنونه "مجالس ابن القاسم"، ومنها كتاب "الاستنباط"[الشعلان،١٤٢٤هـ،ص٢٤٥].

٤) عبدالله بن مسلمة التميمي الحارثي القعنبي المدني

نزيل البصرة، ثم مكة. قال: "اختلفت إلى مالك ثلاثين سنة، ما من حديث في الموطأ، إلا لو شئت قلت: سمعته مراراً". سُئل عنه أبو زرعة، فقال: "ما كتبت عن أحد أجل في عيني منه". وعداده في أصحاب مالك الفقهاء، وكان صاحب عبادة وفضل، قدم مرة من سفر فقال مالك: "قوموا بنا إلى خير أهل الأرض نسلم عليه، فقام فسلم عليه"[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص٢٥٠].

٥) قتيبة بن سعيد ين جميل الثقفي بالولاء البلخي البَغْلاني

وقيل: قتيبة لقبه، واسمه يحيى؛ وقيل: إن اسمه علي. كان إماماً جوالاً؛ فارتحل في طلب العلم كثيراً، وكتب ما لا يوصف كثرة، حيث سمع من خلق يصعب تعدادهم. وروى عنه الإمام أحمد كثيراً، كما روى عنه ابن معين، وابن المديني، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وأبو زرعة، وأبو حاتم

الرازيان، وبلغ عدد الأحاديث التي رواها عنه البخاري ثلاثمائة وثمانية أحاديث، وروى عنه مسلم ستمائة وثمانية وستين حديثاً. وهو إمام، محدث، مكثر، ثقة، صدوق. وروايته للموطأ اختارها النسائي. توفي سنة ٢٤٠هـ[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص٢٥٦-٢٥٧].

ويرى الباحث أن تشجيع المعلم لتلاميذه بالكلمات المناسبة مبدأ تربوي نبيل يعطي الطالب حافزاً قوياً للتقدم في طلب العلم والإبداع، فالإمام مالك لم يقف عند حد الكلام والسؤال عن الحال فقط؛ بل كان فعله تربية وتشجيعاً لتلاميذه، فهو يزور أحد تلاميذه عند قدومه من السفر، ويستضيف تلاميذه في بيته من وقت لآخر، ويعطف على فقرائهم.

من أقواله وحكمه:

١- قال له الرشيد يوما: ناظر أبا يوسف ــ صاحب أبي حنيفة ــ فقال مالك:"إن العلم ليس كالتحريض بين البهائم والديكة"[عويضة، ١٤١٣، ص٦٥].

٢- أنه سئل عما شجر بين الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ؟ فقال: "تلك دماء طهَّر الله منها سيوفَنا فلا تلوث بها ألسنتنا"[الراعي، ١٩٨١م، ص١٧٦].

٣- قال مالك لأحد تلاميذه: "إياك ورق الأحرار" فسأله تلميذه: وما رق الأحرار؟! قال: "كثرة الإخوان"؛ فإن كنت قاضياً ظلمت أو اتهمت بالظلم، وإن كنت عالماً ضاع وقتك"[دار المستقبل، د.ب، ص٤١]

٤- "السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق"[المغراوي، ١٤١٦هـ، ص٣١].

٥- "الجِدَالُ في الدِّين يُنشئ المِراءَ، ويذهب بنورِ العلم من القلب ويُقسِّي، ويُورث الضِّغن (الحقد والكراهية)"[الذهبي، ١٤٠٢هـ، ج٨، ص١٠٦].

٦- وأخرج الغافقي عن ابن أبي أويس قال: سمعت خالي مالك بن أنس يقول: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم"[السيوطي،١٤٣١هـ، ص٢٥].

٧- ويقول معلماً تلاميذه: "لا خير فيمن يرى نفسه في حال لا يراه الناس أهلاً لها"[خليفة، ١٤١٣هـ، ص٢٨].

٨- "ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره، وكرهت أن أذكر علتي فأشكو ربي"[فياض، ١٤١٧هـ، ص٧٢].

٩- "كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل"[فياض،١٤١٧هـ، ص٧٧].

١٠- أجاب عندما سئل عن قتال الخارجين على خليفة عباسي، أيجوز قتالهم؟ فقال مالك: "إن خرجوا على مثل عمر بن عبدالعزيز". قال السائل: فإن لم يكن مثله؟ فقال مالك: "دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما"[فياض،١٤١٧هـ، ص٨٩].

١١- "حق على كل مسلم، أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقه، أن يدخل إلى ذي سلطان، يأمره بالخير، وينهاه عن الشر، حتى يتبين دخول العالم من غيره. فإذا كان، فهو الفضل الذي لا بعده فضل"[فياض،١٤١٧هـ، ص٩٢].

١٢- وأوصى مالك مرة هارون الرشيد في لقاء معه بالمدينة، قال فيما قال له: "لقد بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله، ينفخ للناس النار تحت القدر في عام الرمادة ــ عام الجوع ــ، حتى يخرج الدخان من لحيته، وقد رضي الناس منكم بدون هذا"[فياض، ١٤١٧هـ، ص ص٩٣-٩٤].

١٣- " كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب هذا القبر ــ صلى الله عليه وسلم"[الذهبي، ١٤٠٢، ج٨، ص٩٣].

١٤- "ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يرى أثر نعمته عليه وخصوصاً أهل العلم، ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إجلالاً للعلم"[الزواوي، ١٤١١هـ، ص١٥٥].

١٥- "التواضع في التقى والدين لا في اللباس"ويكرر القول: "إنما كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس"[الشكعة،١٤١٨هـ، ص٣٦].

١٦- وكان مالك أثناء تصديه للتدريس والإفتاء ملتزما الوقار، متجنبا لغو القول تأدبا مع العلم والحديث، ناصحا تلاميذه بذلك قائلا لهم: "حق لمن طلب الحديث أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية"[الرويشد، د.ب، ص٤٦].

١٧- "أدركت ناساً بالمدينة لم تكن لهم عيوبٌ فتكلموا في عيوب الناس فأحدث الناسُ لهم عيوباً، وأدركتُ ناساً بالمدينة كانت لهم عيوبٌ فسكتوا عن عيوبِ الناسِ فسكت الناسُ عن عيوبهم"[الراعي، ١٩٨١م، ص١٧٣].

١٨- "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافقهما فاتركوه"[الراعي، ١٩٨١م، ص١٩٤].

١٩- "إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه"[الندوي، ١٤٢٣هـ، ص ٨٣].

٢٠- قال مطرف: وكان مالك إذا ودعه أحد من طلبة العلم عنده يقول لهم: "اتقوا الله في هذا العلم، ولا تنزلوا به دار مضيعة، وبُثُّوه ولا تكتموه، ولن يُنال هذا الأمر حتى يُذاق طعم الفقر"[الندوي،١٤٢٣هـ، ص٨٢].

٢١- "العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع"[الشرباصي، ب.د، ص٩٧].

٢٢- قال الفرروي: سمعت مالكا يقول: "إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير، لم يكن للناس فيه خير"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص٢٠٧].

٢٣- "كل شيء ينفع فضله إلا الكلام"[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢١٠].

٢٤- "عليك بتقوى الله، وطلب العلم عند أهله"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص٢١٣].

٢٥- قال ابن القاسم: كنا إذا ودعنا مالكاً يقول:"اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص٢١٣].

٢٦- "الإعراب حُلِي اللسان"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص٢١٤].

٢٧- قال ابن وهب: "كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه: "لا أدري"[فياض، ١٤١٧هـ، ص٦٧].

٢٨- وعن ابن مهدي قال: سأل رجل مالكاً عن مسألة فقال: لا أحسِنها. فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالك: فإذا رجعتَ إلى مكانك وموضعك فأخبرْهم أني قلت لك: لا أُحسِنها[ابن الجوزي،١٤٠٩هـ، ص١٢١].

٢٩- عن عبدالله بن وهب قال: قيل لمالك بن أنس: ما تقول في طلب العلم؟ قال: "حسن جميل، ولكن انظر ما يلزمُك من حين تُصبح إلى حين تمسي فالزمْه"[ابن الجوزي،١٤٠٩هـ، ص١٢١].

٣٠- "لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه، فإنه ذل وإهانة للعلم"[الشرباصي، ب.د، ص٩٧].

٣١- "الزهد في الدنيا طيبُ التكسب، وقصر الأمل"[الشرباصي، ب.د، ص٩٨].

٣٢- "إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير"[الشرباصي، ب.د، ص٩٨].

٣٣- "تعلموا العلم قبل العمل"[التواتي، ١٤٠٠هـ، ج٢، ص٣٠٤].

٣٤- "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل"[سي، ١٤٠٠هـ، ص٢٠٧].

٣٥- "إذا حدثت الناس بكل ما سمعت إني إذا أحمق"[الزيتوني، ١٤٠٠هـ، ص٢١٦].

٣٦- "لا أُوتَى برجل يفسر كتاب الله غيرَ عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالاً"[لحمر، ١٤١٥هـ، ص٣٩].

٣٧- سئل مالك ــ رحمه الله ــ عن قوله تعالى:M Y Z] \ L[طه: ٥]. كيف استوى؟ فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"[الحميدي، ١٤٢٠هـ، ص٣٢٧].

٣٨- "إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين"[الخولي،١٣٧٠هـ، ص١٣٥].

٣٩- "لا يُصلِح آخرَ هذه الأمة إلا ما أَصلحَ أولها"[ابن تيمية، ١٤١٢هـ، ص٢٤١].

٤٠- "من علم أن قولَه من عمله قل كلامُه"[الشرباصي، د.ت، ص٩٨].

ومما سبق ــ من أقوال الإمام مالك وحكمه ــ يستنتج الباحث بعض الأفكار التربوية منها: صيانة اللسان عما يضره، واستثمار الوقت فيما يفيد، والاستقامة على الخير، وترك الجدل العقيم، واختيار المعلم الكفء، ومعرفة القدرات، والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحُسن المظهر، والسكينة والخشية والوقار، والإخلاص، والاستمرار في طلب العلم وتعليمه، والأمانة العلمية، والعلم قبل العمل، ومطابقة الأقوال للأفعال، ومراعاة الفروق الفردية، والالتزام بالمصدرين "الكتاب والسنة".

مؤلفاته:

أولاً: مؤلفاته غير المطبوعة:

١- رسالته إلى ابن وهب في القدر، والرد على القدرية.

قال القاضي عياض عن هذا المؤلَّف: وهو من خيار الكتب في هذا الباب، الدالة على سعة علمه بهذا الشأن ــ رحمه الله ــ وقد حدثنا بها غير واحد من شيوخنا بأسانيدهم المتصلة إلى مالك ــ رحمه الله ــ[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٢٨٦].

٢- كتابه في التفسير لغريب القرآن.

قال السيوطي: "وقد رأيت له تفسيراً لطيفاً مسنداً، فيحتمل أن يكون من تأليفه، أو أن يكون علق عليه".[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص٨٣]، والظاهر أن هذا التفسير كان مسندًا، وبذا حاز الإمام مالك قصب السبق في التأليف في التفسير المسند[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٢٨٧].

٣- رسالته إلى أبي غسان محمد بن مطرف في الفتوى.

قال القاضي عياض: "وهي مشهورة، يرويها عنه خالد بن نزار، ومحمد بن مطرف، وهو ثقة من كبار أهل المدينة، قريناً لمالك، يروي عن أبي حازم وزيد بن أسلم، وروى عنه الثقات ووثقوه"[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص ٢٣٨].

٤- رسالته في الأقضية.

مجلد فيه عشرة أجزاء، كتب بها لبعض القضاة[الحدادي، ١٤٢٥هـ، ص٥١].

٥- كتاب المناسك.

وهو من أكبر كتبه، فعن أبي جعفر الأزهري من جلساء مالك أن أكبر كتبه كتاب "المناسك"، إلا أنه لم يشتهر له شيء غير "الموطأ"[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص٨٣].

٦- كتاب السر أو السير.

وينسب إليه أيضا كتاب "السر"، رواه ابن القاسم عنه، وهذا الكتاب جزء واحد، وقد أنكر نسبته إليه غير واحد[السيوطي،١٤٣١هـ، ص٨٤].

٧- كتاب في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر.

قال القاضي عياض عنه: "وهو كتاب جيد، مفيد جداً، قد اعتمد الناس عليه في هذا الباب وجعلوه أصلاً"، كما ذكر القاضي عياض من اعتمد عليه من العلماء أو نقله كاملاً. وموضوعه كما يظهر من عنوانه (علم النجوم) . وهذا الكتاب ثابت النسبة للإمام مالك، حيث ساق القاضي عياض عدة أسانيد لهذا الكتاب، ثم قال عن آخرها: "وهذا أيضاً سند صحيح، رواته كلهم ثقات"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص ص٢٣٦-٢٣٧].

لكن قد يشكك في نسبته للإمام مالك، بأن موضوعَه علمُ النجوم، وهو علم غريب عن مالك وبيئته، والجواب عن ذلك: "أن علمَ النجوم المباحَ؛ تَعَلَّمَهُ ومَهَرَ فيه عددٌ من علماء الشرع قديماً وحديثًا، فلا يستبعد أن يكون مالك ممن تعلمه، لا

سيما وقد تُرجم عدد من كتب النجوم في عصر مالك؛ كما أن مالكاً كان على صلة بجعفر الصادق، وجعفر ممن كان ذا معرفة بعدد من العلوم الكونية، لعل منها علم النجوم؛ فلعله قد أخذ علم النجوم من جعفر، وإذا علمنا أنه في عصر مالك شاع تصديق المنجمين رأينا أن الفرصة مناسبة ليؤلف مالك كتاباً يبين فيه علم النجوم المباح[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٢٩٢].

٨- كتاب المجالسات عن مالك.

قال السيوطي: "رأيت لابن وهب كتاب" المجالسات عن مالك" فيه ما سمع من مالك في مجالسه، وهو مجلد مشتمل على فوائد جمة من أحاديث وآثار وآداب ونحو ذلك[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص ٨٣].

٩- المسائل.

ذكر الخطيب أبو بكر في تاريخ الكبير عن أبي العباس السراج النيسابوري أنه قال: هذه سبعون ألف مسألة لمالك، وأشار إلى كتب منضدة عنه، كتبها. قال القاضي المؤلف ــ رحمه الله ــ: هي جواباته في أسمعة أصحابه التي عند العراقيين[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٣٩].

ثانياً: مؤلفاته المطبوعة:

١- رسالته إلى الليث بن سعد.

وهي صحيحة النسبة لمالك. وهذه الرسالة لها مقدمة رقيقة في أمور شخصية، تدل على لطف مالك العظيم مع الليث، وعلى تقديره له، وبعد هذه المقدمة يأتي صلب الرسالة، وهو في عمل أهل المدينة، وأنه حجة لا تجوز مخالفته[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٢٩٤].

٢- رسالته في الآداب والمواعظ .

وقد اختلف في الشخص الذي وُجِّهت إليه، لكن معظم المصادر على أنه وجهها لهارون الرشيد، وقد أنكرها مجموعة من علماء المالكية. هذا وقد دَرَسَ الشيخ محمد أبو زهرة متن هذه الرسالة، وخرج من دراسته إلى أن

متنها يدل على بطلان نسبتها لمالك، لكنه رجّح صحة نسبة مقدمتها فقط[الشعلان، ١٤٢٤هـ،ص ص٢٩٤-٢٩٥].

٣- الموطأ.

إن نسبة الموطأ إلى مؤلفه الإمام مالك ليست محل خلاف بين أهل العلم، وهو أهم كتب الإمام مالك على الإطلاق، وسيتم تناول هذا المؤلَّف بتفصيل أوسع فيما بعد.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في فكر الإمام مالك بن أنس

أولاً: أبرز شيوخه

أدرك الإمام مالك من الشيوخ ما لم يدركهُ أحدٌ بعده، فقد أدرك من التابعين نفراً كثيراً، وأدرك من تابعيهم نفراً أكثر، واختار منهم من ارتضاه لدينه وفهمه وقيامه بحق الرِّواية وشروطها، وسكنت نفسه إليه، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفُون الرواية، فكان من أخذ عنه تسعمائة شيخ ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعيهم[الدقر،١٤١٩هـ، ص٦١].

ولن يحاول الباحث هنا إحصاءهم، بل سيكتفي بذكر أشهرهم، ومن كان له الأثرُ الظاهر في حياته وحديثه وفقهه، وهم: ربيعة الرأي، وابن هرمز، ونافع الديلمي، وابن شهاب الزهري، وجعفر الصادق.

١) ربيعة الرأي

وهو ربيعة بن أبي عبدالرحمن فروخ المديني، أول الفقهاء الذين جلس إليهم مالك من علماء المدينة وكان إذ ذاك طفلاً ثم عاد إلى الجلوس إليه بعدما نما عوده وبلغ مبلغ الشباب، وكانت فترة لزومه ابن هرمز متوسطة بين فترتي تلمذته لربيعة، وذلك طبقاً لما يشير إليه تسلسل أخبار مالك، لقد أخذ مالك من ربيعة الفقه والحديث والأدب، وكان لسلوك ربيعة وأناقته أثر في سلوك مالك وأناقته. وامتدت صحبة مالك لربيعة طوال حياة ربيعة، وكان مالك في آخر حياة أستاذه قد صار رجلاً، ومن ثم اتخذه أستاذه صديقاً، وقد كان مالك يذهب في صحبة ربيعة لزيارة الزهري حيث يستمعان إليه سوياً وهو يحدّث بأحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا السماع مع ربيعة غير ذلك السماع الذي انتفع به مالك وهو لا يزال صغير السن غضّ الإهاب[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص١٧].

وربيعة الرأي المتوفى سنة ١٣٠ أو ١٣٦هـ هو مولى لآل المنكدر التيمي من قريش فولاؤه في تيم، الذين حالفهم جد مالك، وهذه صلة ما بالأستاذ قد تدخل في تقديره وتفسر إيثار أم مالك له حين ألبسته ثياب العلم، وقالت له اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[الخولي، ب.د، ص٨٧]. والإسلام سوّى بين السيد والمولى، وفضّل المولى على الحر إذا كان صاحب علم وعمل.

وربيعة هذا يضاف اسمه إلى "الرأي" على معنى أنه صاحب رأي، في مشكلات الأمور، كما سمعت تلك الإضافة في "المغيرة بن شعبة" فقيل له "مغيرة الرأي" إذ كان من دهاة العرب، لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجاً، ولا يلتبس عليه أمران إلا ظهر له الرأي في أحدهما[الخولي، ب.د، ص٨٧].

وقيل: إن ربيعة سمي بربيعة الرأي لأنه أخذ المادة الفقهية من بيئة المدينة، ومن الفقهاء السبعة والتابعين بشكل عام، وربما خالفهم في فتاواهم بوجهات نظر لم يؤثر للفقهاء السابقين نظائر لها حتى سمي ربيعة الرأي لكثرة ما أبدى من آراء فقهية[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص١٧-٢٩].

ويبدو أن الإمام مالكاً أخذ من ربيعة فقهاً كثيراً، فإذا حانت كلمة حول الفقهاء قال مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة بن أبي عبدالرحمن، ولقد روى الإمام مالك عن ربيعة كثيراً من الأحاديث الشريفة، وكان مالك يشير إلى ربيعة ومعاصريه من الشيوخ عندما يقول: على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا، وليس من شك في أن مالكاً قد أفاد من ربيعة عقلاً رشيداً، وفكراً سديداً[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص١٨].

لقد قال خصوم ربيعة فيه كلاماً كثيراً، وطعنوا في لباقته، وادعوا أنه كثير الكلام إلى المدى الذي يبعث الملل والسأم، ولكنه كان على عكس ذلك تماماً، وقد وصفه الليث بن سعد – على ما بينهما من خلاف في الرأي – وصفاً يفيض بالنصفة والاعتدال، فقال في فقرة من رسالته المشهورة إلى مالك ما نصه: "ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله"[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص١٨].

ومهما كان الأمر، فمالك تلميذ لربيعة أخذ منه الكثير، واقتبس من طريقة تفكيره بحيث يرى الدارس الفاحص أن آراء ربيعة تعلن عن نفسها في فقه مالك، بل في أساس فقه مالك، فربيعة كان يأخذ برأي أهل المدينة إذا وجدهم اتفقوا على أمر من الأمور، واعتبر هذا أقوى من ناحية الأخذ به من حديث الآحاد، ولربيعة في ذلك قول مشهور وهو: ألف عن ألف أحب إليّ من واحد عن واحد، فإن واحداً عن واحد ينتزع السنة من أيديكم[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص١٩].

٢) عبدالله بن هرمز

هو أبو بكر عبدالله بن يزيد، المعروف بابن هرمز، الأستاذ الثاني لمالك، والحقيقة أنه الأستاذ الثاني من حيث الترتيب الزمني، وأما من الناحية العملية فهو الأستاذ الأول، ذلك أن مالكاً لزم صحبته حسب قوله سبع سنين – أو ثماني سنين – لزوماً متصلاً لا يخلط به أحداً من الشيوخ، ثم سمحت ظروف مالك بعد ذلك بحكم التقدم العقلي ووصوله إلى مرحلة اليفاع أن يتصل بأساتذة آخرين أو بشيوخ آخرين حسب لغة العصر، ومع ذلك فلم تنقطع صلته بشيخه الأساسي ابن هرمز، فلقد امتدت صلته به ثلاثين عاماً، ذلك أن مالكاً يقول في منهج تعلمه وهو المنهج الذي يؤمن به لكي يتخرج الدارس ويكون مؤهلاً لصفة الفقيه: "أنْ كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه" وكان تلامذة مالك الذي يسمعون منه هذا القول يذهبون إلى أن الإمام يريد بهذا القول اختلافه إلى ابن هرمز ولزومه له[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص ص١٩-٢٠].

وابن هرمز هذا الذي استطاع أن يهدي إلى المسلمين واحداً من جلة أئمتهم، وخيرة فقهائهم، وفرة علم، وصحة حديث، ووضوح فقه، ونقاء مسلك، واستواء فكر، وشموخ شخصية، واستمساكاً بأهداب القيم الرفيعة مع الحكام والمحكومين[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٠].

توفي ابن هرمز في المدينة المنورة سنة ١٤٨هـ، أي أنه توفي حين كان عمر الإمام خمسة وخمسين عاماً، ومن هنا كانت قولة مالك كاملة الصدق ــ ومالك صادق دائماً ــ كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين عاماً[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٠].

وابن هرمز كان مولى ولم يكن عربياً صليبة، ولأن مكانة المرء في الإسلام مقرونة بعلمه وعمله، وليس بحسبه ونسبه وماله، فإن مالكاً العربي صليبة الأزدي محتداً يقضي معظم حياته العلمية ملازماً لرجل من الموالي، يقف على بابه، ويتحين الفرص للقائه، يسمع منه الفقه، ويتلقى عنه الرواية، وتلك الظاهرة مبدأ أساسي من مبادئ الإسلام الذي سوّى بين الناس جميعاً وجعلهم كأسنان المشط لا يتفاضلون إلا بالعمل الصالح[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٠].

لقد سلف القول أن مالكاً كان إذا سئل عن مسألة وأراد أن يخلع على إجابته ثوباً من التوثيق قال: على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا والأمر عندنا، وأهل العلم الذين كان يقصدهم في قوله هذا هما "ربيعة" و"ابن هرمز"[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٠].

لقد كان ابن هرمز مولى للسدوسيين، وكان أعرج وأصم، وتلك صفات لا تعيبه ولا تنال من قدره، فهو من الناحية العلمية من علو الشأن وسمو المكانة بحيث ينتظم الطبقة التالية لفقهاء المدينة السبعة المشهورين، وهو بين فقهاء المسلمين ينتظم الطبقة الرابعة التي منها ربيعة بن أبي عبدالرحمن، وابن شهاب الزهري، وعمر بن عبدالعزيز، وأبو الزناد[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢١].

وهكذا يكون أربعة من شيوخ مالك معدودين في الطبقة الرابعة من علماء المسلمين، ويعني بهم الباحث ربيعة الرأي وابن هرمز وابن شهاب وأبا الزناد.

وكان ابن هرمز على مكانته العلمية لا ينشط لسرعة الإجابة عن المسائل، ولا يتهجم على الإفتاء، ولا تسعى نفسه للتظاهر بالصدارة في العلم والرياسة في الفقه كما يفعل بعض أنصاف العلماء في الآونة الراهنة، ولكنه كان يؤثر الأناة وطول التفكير قبل الإجابة عن مسألة من المسائل، ثم ينتهي إلى القول: لا أدري. ولم يكن الفقيه الحافظ يجد في ذلك أية غضاضة، فقول المرء لا أدري خير من أن يجيب إجابة خاطئة أو إجابة غير كاملة الصواب، ولم يكن ابن هرمز يقول ذلك في مجال توجيه الأسئلة إليه وحسب، وإنما كان ذلك مذهبه في العلم ومنهجه في التعليم، ذلك أن الإمام مالكاً يروي أنه سمع شيخه ابن هرمز يقول ينبغي أن يورّث العالم جلساءه قول لا أدري حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٢].

٣) نافع الديلمي

ومن المشايخ الأعلام الذين أخذ عنهم مالك الفقيه المحدث نافع مولى ابن عمر أبو عبدالله العدوي المدني أحد الأعلام التابعين، قيل: أصله من المغرب، وقيل: من الديلم شمالي العراق، أُسِر في إحدى الحروب بين المسلمين والفرس، فكان من سهم عبدالله بن عمر، فلزمه ما يقرب من ثلاثين سنة، تعلَّم خلالها القرآن الكريم والسُّنَّة المشرفة[الندوي،١٤٢٣هـ، ص٤٠].

وقد سلفت الإشارة إلى أن مالكاً كان ينتظره في الطريق في حرارة الصيف وما يظله شيء، يترصد ظهوره حتى يجد سبيلاً للتحدث إليه والأخذ عنه، وقد طالت صحبة مالك له فيما بعد حين كف بصره، فكان مالك يقوده من منزله بالبقيع إلى المسجد النبوي ثم يعود به إلى المنزل[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٣].

ويمكن القول أخبار مالك الفتى ثم الشاب كثيرة مع نافع على الرغم من أن صحبته له كانت دون صحبته لأي من مشايخه الآخرين؛ ذلك أن نافعاً توفي سنة ١١٧هـ وفي رواية أخرى سنة ١٢٠هـ ومعنى ذلك أن نافعاً توفي ومالك في الرابعة والعشرين إن صح التاريخ الأول للوفاة، وفي السابعة والعشرين إن صح التاريخ الثاني[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٤].

وكان متواضعاً قليل الكلام وفي لسانه لكنة لكونه ديلمياً، ومرة ثالثة نقول أنه لا علاقة لتواضع منشئه ولكنته وكونه مولى بسمو مكانته ورفعة قدره وخلوده في التاريخ بين فقهاء المسلمين، ورواة حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد رفع الإسلام من شأنه، وسما العلم بقدره، وعظَّم الحديث من مكانته إلى المدى الذي جعل الراشد الخامس الخليفة عمر بن عبدالعزيز يبعث به إلى أهل مصر لكي يعلمهم السنن. وإن مولى في كلامه لكنة يجعله العلم معلماً لقطر من أعرق أقطار الدنيا، ومصر من أخطر الأمصار الإسلامية لَشَهادَةٌ معطرة الأَرْدان لقيمة العلم في الإسلام[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٤].

إن عبدالله بن عمر نشَّأ مولاه نافعاً على العلم، وفقَّهه في الدين، وكان نافع من الذكاء والحذق بحيث أخذ الحديث عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأم المؤمنين عائشة، وكان أعلم الناس بفقه مولاه عبدالله بن عمر، وابن عمر هو أحد العبادلة الثلاثة الذين إليهم انتهت الرواية والأحكام. ولقد أفاد مالك من نافع فقهاً وحديثاً، وأخذ عنه أحاديث ابن عمر، وكان مالك شديد الثقة في نافع حيث كان يقول: إذا سمعتُ حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمعه من أحد غيره. ومن هنا قال رجال الحديث: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، وحين يتصل الشافعي بهذه السلسلة فإنها تسمى سلسلة الذهب. ومن ثم فقد أخذ مالك عن نافع فقه ابن عمر وحديثه، فأنعم به من آخذ، وأنعم بنافع من مأخوذ عنه[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٥].

٤) ابن شهاب الزُّهْري

وهو أبو بكر المدني، محمد بن مُسْلم المشهور بابن شهاب الزُّهْري، منسوب إلى زُهْرَةَ بن كلاب بن مُرُّة، وهي قبيلة كبيرة من قريش، ومنها آمنة أمُّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، ومن ثم فله برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نسب وقرابة، أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم[ابن خَلْكان، ١٤١٤هـ، ص ص١٧٧-١٧٨].

وروي أن عمرو بن دينار ــ وهو من التابعين ــ سمع عن علمه أخباراً كثيرة، قال: أي شيء عند الزهري؟ أنا لقيت ابن عمر ولم يلقه، ولقيت ابن عباس ولم يلقه! ثم قدم الزهري إلى مكة وسمع بذلك ابن دينار، فقال عمرو: احملوني إليه ــ وقد أُقعد ــ، فحمل إليه فلم يأتِ إلى أصحابه إلا بعد ليل، فقالوا له: كيف رأيت؟ فقال والإعجاب باد عليه: والله ما رأيت مثل هذا القرشي قط! وكان قد حفظ علم الفقهاء السبعة[الشيرازي، ب.د، ص٦٤].

لم تكن شهادة التابعي الجليل عمرو بن دينار وحدها المأثورة عن فضل ابن شهاب وعلمه، وإنما كان أيضاً موضعاً لثقة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقد كتب في الآفاق "عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه" كما أن عمر بن عبدالعزيز أمره بتدوين أحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولعل ذلك هو السبب فيما يروي أصحاب الأخبار من أن الزهري كان يطوف على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب ما يسمع، وكما كان الزهري موضع ثقة عمر بن عبدالعزيز ومشهوداً له من عمرو بن دينار، فإن الليث بن سعد إمام مصر وشيخ علمائها قبل الشافعي له فيه رأيٌ جليل، فهو القائل في الزهري: ما رأيت أعلم منه[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٦].

ويبدو أن الزهري كان كثير القراءة دائم الإطلاع له مكتبة خاصة في بيته، يجلس بين كتبه يطيل النظر ويشتغل بها عن كل أمور الدنيا، ومن الطرائف التي تروى في هذا السبيل أن زوجته قد ضاقت بكتبه ذرعاً فقالت له يوماً: "والله إن هذه الكتب أشد عليَّ من ثلاث ضرائر"[ابن العماد، ١٤٠٨هـ، ج٢، ص١٠٠].

ورُوي عن ابن شهاب أنه قال: "ما استودَعْتُ قلبي شيئاً فنَسِتُه"، لذلك كان الزهري صاحب ثقافة عريضة، فقد روي عن اللَّيث بن سَعْد أنَّه قال: "ما رأيتُ عالماً قط أجمعَ من ابن شهاب ولا أكثرَ علماً منه، ولو سمعتَ ابنَ شهاب يُحدِّث في الترغيب لقلتَ: لا يُحسِنُ إلا هذا، وإن حدَّث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلتَ: لا يُحسِنُ إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب قلتَ: لا يُحسِنُ إلا هذا، وإن حدَّث عن القرآن الكريم والسنة المشرفة كان حديثَه بوعي جامع"[الأصفهاني، ١٤١٦هـ، ج٣، ص٣٦١].

لقد جلس مالك إلى شيخٍ هذه ثقافته، وتلقّى عن عالم أخذ من علم المدينة ما استطاع أن تعيه ذاكرته الفذة، ومن بين ما وعى علم الفقهاء السبعة، وأحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ التي كُلِّف بجمعها. إن مالكاً جلس إلى الزهري ساعات وأياماً، وقد سلف خبر قضائه معه يوم عيد، فقال عنه إعجاباً بحفظه لحديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: إنه من أوعية العلم، كما استقبله شاباً مع ربيعة الرأي، فليس غريباً أن يفيد منه مالك فقهاً كثيراً وأحاديث عديدة، وأن يقول عنه: إنه ليس له في الناس نظير. وقد توفي الزهري سنة ١٢٤هـ ببلدة "شَغْب" على حدود الحجاز وفلسطين[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص ص٢٦-٢٧].

٥) جعفر الصادق

ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم مالك وتأثر بهم في سلوكه: الإمام أبو عبدالله، جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي العلوي المدني، المعروف بجعفر الصادق، وكان سيد بني هاشم في زمنه، توفي سنة ١٤٨هـ، ودفن بالبقيع[ابن العماد، ١٤٠٨، ج٢، ص٢١٦].

وربما يحسُ الدارس هذه الأيام بشيء من الغرابة في أن يأخذ أحد أئمة أهل السنة عن أحد أئمة الشيعة، والحقيقة أن واقع حياة المسلمين على عهد مالك وجعفر لم تكن كواقعها في هذا العصر الذي توجد فيه فجوة واسعة بين الفريقين. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كانت شخصية الإمام جعفر من ناحية العلم والفضل والتقوى والتسامح لما يدعو كل مسلم مهما كان مذهبه إلى احترامه وإجلاله، وهل من مسلم إلا ويحب أبناء آل البيت، فما بالنا إذا كان هذا الابن

غزير العلم، وافر الحكمة، كامل الأدب، زاهدًا ورعاً، بعيداً عن الغلو، بريئاً من التطرف، لا يحب الاعتزال، هكذا كان الإمام جعفر[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٧].

لقد كان الإمام جعفر – على خلاف الشيعة المتأخرين – يؤمن بخلافة أبي بكر وعمر، ولا يذكرهما إلا بكل حمد وثناء، بل هو حفيد لأبي بكر من ناحيتين: قال أهل النسب ولده أبو بكر الصديق رضي الله عنه مرتين، من ناحية أمه، ومن ناحية جدته لأمه، ذلك أن أمه هي أمّ فَرْوَة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وجدته من ناحية أمه هي أسماء بنت عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، فلهذا كان جعفر بن محمد يقول: "ولدني أبو بكر مرتين"[ابن عبدالبر، ب.د، ص٢٤]. فهو علويٌّ الأب، بَكريٌّ الأُم. وإن الذي يقول ذلك يصعب أن تلصق به مسحة من الغلو[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٨].

وذكر مصعب الزَّبيري، عن مالك ــ رحمه الله ــ أنه قال: "اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً وما كنتُ أراه إلا على ثلاث خصال: إمَّا مصلٍّ، وإما صائمٍ، وإما يقرأ القرآن، وما رأيتُه يحدّث عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا على طهارة، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العُباد الزُّهاد الذين يخشون الله، ولقد حججتُ معه سنةً فلما أتى الشَّجرةَ أحْرَمَ، فكلَّما أراد أن يُهِلَّ كاد يُغشى عليه، فقلت له: لا بدَّ لك من ذلك ــ وكان يُكرمني ويَنبسطُ إليَّ ــ فقال: يا ابنَ أبي عامر، إني أخشى أن أقول: لبَّيك اللهم لبيك، فيقول: لا لبيك ولا سعديك[ابن خلفون، ١٤٢٥هـ، ص١٣٥].

هذا هو الإمام جعفر كما رآه الإمام مالك، ومن المعروف أنه كان في قمة من المسالمة إلى الحد الذي جعله يغادر المدينة المنورة – مسكنه ودار إقامته – حين خرج ابن عمه محمد بن عبدالله بن الحسن على العباسيين، ولم يعد إليها إلا بعد أن انتهت الثورة وقتل محمد وأخوه إبراهيم، ومالك فعل نحو هذا حيث لزم بيته[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص ص٢٨-٢٩].

ويذكر بعض الباحثين أن لجعفر اشتغالاً ببعض العلوم الكونية، فربما كان مالك قد أخذ منه شيئاً من ذلك، وضَمَّنه مالك كتابه في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ٢١٣].

هذا وقد كان الإمام جعفر ذا صلة وثيقة بالإمام أبي حنيفة لحمتها المشاركة العلمية والمعرفة الفقهية، وسداها المودة الصادقة والحب المتبادل، ولم يكن مالك وأبو حنيفة وحدهما الآخذين من فيض علم الإمام جعفر من بين أئمة أهل السنة، وإنما أخذ عنه واتصل به السفيانان الثوري وابن عيينة وشعبة بن الحجاج وغيرهم[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٢٩].

ثانياً: ظروف عصره

عاش المسلمون في عهد النبوة بالمدينة المنورة أمة واحدة وإخواناً متحابين متعاونين يسودهم الأمن والسلام، ولم يكن بينهم اختلاف في عقيدتهم ومبادئهم، بل كانوا جميعاً على شريعة واحدة ومنهج موحد لا خلاف فيه، ولكن حدث بعد هذا العهد الزاهر أن بدأ الخلاف على أمر الخلافة يدب في صفوف المسلمين وظل هذا الخلاف يتطور ويستفحل خلال عهود الخلفاء الراشدين وأيام حكم الأمويين والعباسيين على يد جماعات حقدت على الإسلام والمسلمين فكوَّنت مذاهب منحرفة سببت الخلاف بين المسلمين وكان أربابها من اليهود والنصارى والمجوس، وتلقاها عنهم رجال من جهلة أبناء المسلمين، تحزبوا وغلبت عليهم صنوف من الفتن والبدع وأخرى من الزندقة والإلحاد كادت تنشر الفساد والضلال بين العامة والخاصة من المسلمين، لولا أن قيض الله بفضله للإسلام والمسلمين طائفة مباركة من العلماء العاملين والفقهاء الراشدين المتقين الذين استطاعوا أن يتصدوا لهذه التيارات الجارفة المدمرة التي أثارها أعداء الإسلام والمسلمين فقاوموها وأوقفوها[إبراهيم، د.ت، ص١٥-٤١].

ويرى الباحث أن عصر الإمام مالك لا يمكن فصله عن العصور التي سبقته، فالعوامل السياسية مثلاً هي سلسلة أحداث مترابطة منذ وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى وفاة الإمام مالك بن أنس، فكل ما سمعه الإمام مالك وشاهده كون عنده فكراً من خلاله استطاع أن يصدر أحكامه، وسنتحدث عن ذلك في الصفحات التالية.

نبذة عن الانقسامات التي ظهرت بعد وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ:

كان من مشايخ مالك وأهله من شاهد كثيراً من الأحداث السياسية في القرن الأول الهجري أو سمع من أنبائها، لاسيما أنباء الخروجات والثورات، فسمع مالك من تلك الأنباء، وشاهد بنفسه أحداثاً سياسية وقعت في المدينة، وسمع أنباء أحداث وقعت في عصره ضد بني أمية، وعاصر خروج العباسيين على الأمويين واستيلاء العباسيين على الخلافة، وانتهاء أمر الأمويين في المشرق الإسلامي[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص٧٦٦].

ولعل مالكا أدرك أن الخروج والثورة كان هو الطابع الغالب على الحياة السياسية منذ أن حاصر الأحزاب المدينة وقتلوا عثمان ــ رضي الله عنه ــ سنة خمس وثلاثين للهجرة، وكان مالك بن أبي عامر جد الإمام مالك أحد أربعة حملوا عثمان ــ رضي الله عنه ــ بعد قتله إلى قبره بالبقيع. وعلم مالك بوقعة الجمل بين جيش علي وجيش عائشة وطلحة وابن الزبيرــ رضي الله عنهم ــ، ثم الفتنة بين علي ومعاوية ــ رضي الله عنهما ــ، ووقعة صفين، وخروج الخوارج على علي ــ رضي الله عنه ــ وقتله سنه أربعين على يد عبدالرحمن بن ملجم ــ حاسبه الله تعالى حساباً شديداً ــ وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ــ رضي الله عنهما ــ والصلح بين الأمة على يد الحسن ــ رضي الله عنه ــ سنة إحدى وأربعين، وأثر ذلك على الأمن والاستقرار في الدولة، وثمرات ذلك على الدين والدعوة والفتوح الإسلامية في عهد معاوية ــ رضي الله عنه ــ حتى سمي هذا العام بعام الجماعة لتوحد راية المسلمين فيه بعد طول قتال وخلاف[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص٧٦٧].

وقد ورد أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية ــ رضي الله عنه ــ فقالوا له: أنت تنازع عليا ــ رضي الله عنه ــ أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلون أن عثمان ــ رضي الله عنه ــ قتل مظلوما، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه وأمره إليَّ؟[ابن كثير، د.ت، ج٨، ص١٣٢].

وعن جرير بن عبد الحميد عن مغيرة، قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية ــ رضي الله عنهما ــ جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم، وفي رواية أنها قالت له بالأمس تقاتلنه واليوم تبكينه؟[ابن كثير، د.ت، ج٨، ص١٣٣].

وعلم مالك بأنباء أخذ البيعة ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالإكراه وخروج الحسين بن علي ــ رضي الله عنهما ــ على يزيد ومقتل الحسين سنة إحدى وستين، وفرار ابن الزبير ــ رضي الله عنه ــ من المدينة إلى مكة هرباً من الإكراه على البيعة ليزيد، ومحاصرة جيش يزيد له في الحرم ونصب المنجنيق عليها وضربها واحتراق أستارها وخشبها، وتصدع جدرانها. وكذلك، جاءه من أنباء وقعة الحرَّة سنة ثلاث وستين حيث استولت جيوش يزيد بن معاوية على المدينة بسبب إعلان أهلها خلعه لما علموا من أنباء فسقه وجوره، فاستباحها قائد جيش يزيد، وقال مالك: قتل يوم الحرَّة سبعمائة ممن حمل القرآن[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص٧٦٧].

ومن الأسباب لترشيح معاوية ــ رضي الله عنه ــ لابنه يزيد: الحفاظ على وحدة الأمة، وقوة العصبية الإقليمية القبلية في عصره، ومعاوية ــ رضي الله عنه ــ اجتهد للأمة خوفاً عليها من الانقسام والفتن. وإذا كان معاوية ــ رضي الله عنه ــ قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة[الصَّلابي، ١٤٢٧هـ، ص٥٣٥].

ومع عظم سلطان معاوية ــ رضي الله عنه ــ لم يستطع أن يهمل ديمقراطية الإسلام فنجده يعمل عدة سنوات لتولية ابنه الخلافة ويبذل العطاء ويقرب البعيد ويقوم برحلات نائية يسأل فيها الناس أن يبايعوا ليزيد، ولولا ديمقراطية الإسلام لعين معاوية ــ رضي الله عنه ــ ابنه دون هذا العناء الذي تشعب وطال[شلبي،١٩٨٤م، ج٢، ص٥٠].

وكذلك تناهى إلى مالك خروج التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي على عبيدالله بن زياد في خلافة مروان بن الحكم سنة خمس وستين ثأراً للحسين، بعد مقتل سليمان بن صُرد وأصحابه، ثم خروج إبراهيم بن

الأشتر النخعي بالكوفة وقتله عبيدالله بن زياد سنة سبع وستين، ثم مقتل عبدالله بن الزبير ــ رضي الله عنهما ــ سنه ثلاثة وسبعين بعد أن حاصرته جيوش عبد الملك بن مروان بقيادة الحجاج داخل الحرم وضربت الكعبة بالمنجنيق حتى أصيب ابن الزبير ــ رضي الله عنهما ــ وقتل. وسمع مالك الكثير من أنباء ثورات الخوارج في أرجاء الدولة الإسلامية، وشاهد بعضها، ولعل مالكا نشأ على سماع أخبار الفتن والصراعات، والقتل وسفك الدماء وإزهاق الأرواح، وأدرك أثر ذلك على الأمة والدولة والدين والدعوة وأن ذلك لم يقم حقا ولم يدفع باطلاً[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص٧٦٨].

الحالة السياسية في العصر الذي عاش فيه الإمام مالك بن أنس:

عاش الإمام مالك ــ رحمه الله ــ على القول المشهور في الفترة الواقعة بين سنتي ثلاث وتسعين وتسع وسبعين ومائة، أي أنه عاصر أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية؛ فعاش في عهد الدولة الأموية حوالي أربعين سنة، وعاش في عهد الدولة العباسية حوالي سبع وأربعين سنة[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٦٥]، فبذلك عاصر الإمام مالك بن أنس أربعة عشر خليفة من حكام المسلمين، تسعة خلفاء من الدولة الأموية، وخمسة خلفاء من الدولة العباسية، وشاهد دولة إسلامية موحدة قوية اهتمت بالفتوحات الإسلامية ونشر الدين الإسلامي، وسرعان ما رأى هذه الدولة القوية انقسمت على نفسها شطرين، شطراً بالمشرق، وشطراً بالمغرب، ثم رأى سقوط هذه الدولة، وشهد انتقالها من بني أمية إلى دولة بني العباس، وشهد الحوادث الدامية التي ترتبت على سقوط تلك الدولة، وبناء هذه الدولة الجديدة[الدرديري،١٤٠٢هـ، ص٤١].

فقد ولد الإمام مالك في خلافة الوليد بن عبدالملك بن مروان وهو الخليفة السادس في ترتيب الدولة الأموية (٨٦-٩٦هـ)، وقد ظل الوليد في الخلافة لمدة عشر سنين وكان عهده من أكثر عهود بني أُمية قوة ومنعة وكانت دولته دولة فتية، وفتحت في عهده بلاد ما وراء النهر وهي بلاد بلخ وبلاد كرمينية وبخارى وخوارزم وسمرقند، كما جرت محاولة لفتح بلاد الصين

ولكنها انتهت بالصلح على دفع الجزية، وكانت تلك الفتوحات على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، وغزا محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند، ووجه القائد موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد فغزا بلاد الأندلس ووصل المسلمون في فتوحاتهم غرباً إلى ما وراء نهر البرانس[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤١].

ثم ولاية سليمان بن عبدالملك بن مروان (٩٦-٩٩هـ)، فقد كان ديناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبدالعزيز، وفي عهده جرت محاولة لفتح القسطنطينية[الذهبي، ١٤١٠هـ، ج٥، ص ص١١١-١١٢].

ثم ولاية أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز الخليفة العادل الذي عمّ عدله كل أفراد الدولة الإسلامية مسلمها وذميها، وقد ردّ عمر بن عبدالعزيز المظالم إلى أهلها، ونال كل صاحب حق حقه، وأمر بقول الله تبارك وتعالى:L KM

W V U T S R Q P O N M

L [Z Y[النحل:٩٠] أن يقال في الخطب المنبرية، وكانت مدة خلافته سنتين ٩٩-١٠١هـ[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤١،٤٢].

ثم ولاية يزيد بن عبدالملك بن مروان (١٠١-١٠٥هـ)، وفي عهده أعلن شوذب الخارجي الحرب على الأمويين فحاربه يزيد بن عبدالملك وقضى على فتنته[حسن، ١٤١٦هـ، ص٢٧٠]. وقد كان يزيد يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، وقد اتهمه بعضهم في الدين، و ليس بصحيح، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد، أما هذا فما كان به بأس[ابن كثير، د.ت، ج٩، ص٢٤١].

ثم ولاية هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ)، واهتم هشام في أيام ولايته بتعمير الأرض وزراعتها، وتقوية الثغور، وحفر القنوات، وظهرت في عهده صناعة الخز والقطيفة، وخرج في عهده زيد بن علي بن زين العابدين وقد حاربه هشام وقضى على حركته، وقد كان محباً للخيل، وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء، وعنى بتقوية آلات الحرب[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤٢].

ثم ولاية الوليد بن يزيد بن عبدالملك (١٢٥-١٢٦هـ)، وبقي في الخلافة سنة وشهران، واشتهر باللهو والخلاعة وأشعاره مشهورة في الغزل والعتاب ووصف الخمر، وانهمك في أيام خلافته في المعاصي وانتهاك الحرمات، ورماه بعضهم بالزندقة، واجتمع عليه بنو أمية وبعض رجال دولته فقتلوه، قال ابن كثير: ويظهر أنه كان عاصياً شاعراً ماجناً متعاطي للمعاصي لا يتحاشاها من أحد ولا يستحي من أحد قبل أن يلي الخلافة وبعدها[ابن كثير،١٤٢٤هـ، ص٤١٨]. وهذا يدل على أن جمهور الناس على خلاف هذه الأخلاق، وهذا مما يحمد لهم، لذلك لم تدم خلافته.

ثم ولي يزيد بن الوليد الخلافة بدمشق في جمادى الآخرة سنة١٢٦هـ، وتوفي في ذي الحجة من هذه السنة بعد أن بقي في الخلافة خمسة أشهر، وقد سمي الناقص؛ لأنه نقص أرزاق بعض الجند وخاصة الحجاز، وفي عهده أخذ حبل أمية في الاضطراب، ولما مات بويع أخوه إبراهيم بيعة لم تأت بطائل، ولم يمكث في الخلافة أكثر من شهرين[حسن، ١٤١٦هـ، ص٢٧٣].

ثم ولاية مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ)، حيث أمضى جلَّ حياته مجاهداً في سبيل الله تعالى، حتى سمي: مروان الحمار؛ لجلده على ركوب الخيل، ويقال: أصبر في الحرب من حمار. وكان مروان ــ رحمه الله ــ بطلاً شجاعاً داهيةً، رزيناً جباراً يصل السَّير بالسُّرى، ولا يجفُّ له لِبْد، دوَّخ الخوارج بالجزيرة، وكان مروان بن محمد هو آخر خليفة في الدولة الأموية[الذهبي،١٤١٠هـ، ج٦، ص٧٤].

وعاصر الإمام مالك في كل هذه الحوادث، وشاهد عظمة الإسلام في فتوحات الوليد بن عبدالملك الممتدة من شبه القارة الهندية إلى القارة الأوربية وما بينهما من قارتي آسيا وأفريقيا، وشهد امتداد الدولة في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، وشاهد فسق الوليد بن يزيد وخلاعته وفوضى الحكم والدولة واضطرابات الحياة العامة بكثرة الخارجين عليها[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤٣].

وفي عام (١٢٩-١٣٠هـ) استولى أبو حمزة الخارجي الأباضي من قبل عبدالله بن يحيى المعروف باسم "طالب الحق" في حضرموت على مكة والمدينة بعدما قتل من أهل المدينة خلقاً كثيراً، قيل: كان عدد القتلى سبعمائة[ابن الأثير، ١٤٢٠هـ، ج٤، ص٣٧١، ٣٨٤].

فلما حدث كل ذلك اجتمع أهل الحل والعقد من علماء الأمة وقادتها، وذوي الرأي فيهم، من قريش والأنصار وسائر الناس في العواصم الكبرى للدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء في مكة والمدينة والعراق، وحضر معهم من ترشحهم الأمة لخلافتها من آل علي والعباس وسائر قريش، اجتمع جماعة من بني أمية وبني هاشم بالأبواء (قرية بضاحية المدينة المنورة) وفيهم إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وأخوه أبو العباس، وأخوهما أبو جعفر، وعمهم صالح بن علي، وعبدالله ــ الكامل ــ بن الحسن، وابناه محمد ــ النفس الزكية ــ وإبراهيم، وجعفر الصادق بن محمد الباقر، ومحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وحظي الإمام محمد ــ النفس الزكية ــ مرارا ببيعة أهل الحرمين الشريفين، وكان قادة بني العباس في طليعة المبايعين والمعترفين له بمزيد من العلم والفضل والدين؛ حتى قال فيه أبو جعفر المنصور: ما في آل محمد ــ صلوات الله عليه ــ أعلم بدين الله ولا أحق بولاية الأمر منه، وإذ بمن بايعه من آل عباس ينكثوا بيعته وأصبحوا يحاربونه ويحاربون كل من يمت له بصلة[الكتاني،١٤٠٠هـ، ج٢، ص ص٥٨-٥٩].

وعاصر الإمام مالك بن أنس قيام الدولة العباسية وانقلابها على بني أمية على يد الإخوة الثلاثة: إبراهيم والسفاح والمنصور، وكان أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) هو أول من جلس على الحكم في الدولة العباسية، وأطنب في مدح أهل الكوفة وأهل خراسان لمساعدتهم له في إقامة دولته وأجزل لهم العطاء لاسيما وأنه كان كريماً، ويؤخذ عليه سفكه للدم الحرام[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤٤].

ثم ولاية أبي جعفر المنصور(١٣٦-١٥٨هـ)، أبادَ جماعةً كباراً حتى توطَّد له الملك، ودانت له الأمم على ظُلْم فيه وقوة نفس، ولكنَّه يرجع إلى صِحَّة

إسلام وتديُّن في الجُملة، وتصوُّن وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالة، وكان حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم[الذهبي، ١٤١٠هـ، ج٧، ص٨٣].

ثم ولاية محمد المهدي (١٥٨هـ-١٦٩هـ)، كان جواداً كريماً محبباً إلى الرعية فمنذ تولّي الأمر أخذ في ردّ المظالم، ويحمد له أنه كان شديداً على أهل الإلحاد والفجور، تتبع الزنادقة وعمل على إبادتهم[شاكر، ١٤٢١هـ، ج٥، ص ص ١٢٨-١٣٠].

ثم ولاية موسى الهادي (١٦٩-١٧٠هـ)، وظل في الخلافة لمدة سنة وقرابة الشهرين، وقضى معظم ولايته في حرب ضد الخوارج، وبعض الزنادقة وتتبع رؤوس بني أمية[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤٥].

ثم ولاية هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ)، وهو أشهر خلفاء بني العباس، واستقرت الدولة العباسية في عهده، ويعتبر عهده من أزهر عهود الدولة العباسية، وكان هارون الرشيد رجلاً خيراً في نفسه ولعل من أبرز الحوادث في عصره هي نكبة البرامكة، وقد شجع هارون الرشيد العلم والعلماء وأجزل لهم العطاء[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤٥]. وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التي تجبى من الضرائب، حتى بلغت في عهده ما يقرب من اثنين وسبعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، حتى إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: "اذهبي حيث شئت يأتني خراجك". وصفوة القول أن أيام الرشيد كانت كما يقول السيوطي: "كلها أيام خير كأنها في حسنها أعراس"[حسن، ١٤١٦هـ، ص ٥٥].

حوادث بارزة في حياة الإمام مالك بن أنس منها:

حادثة خروج محمد بن عبدالله بن الحسن (النفس الزكية)، فبعدما آل الأمر إلى العباسيين نشط العلويون في الخروج عليهم وكان قد سبق للإخوة الثلاثة: إبراهيم وأبي العباس عبدالله السفاح وأبي جعفر المنصور أبناء محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ومن معهم من آل العباس أن بايعوا محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (النفس الزكية)، وكان ذلك في أواخر

دولة بني أمية وفي عهد مروان بن محمد لما يعلمونه من فضله ودينه وورعه، ولكنهم نكثوا عهدهم ودعوا إلى دولة بني العباس سراً، فلما كانت لهم الغلبة نكلوا بالعلويين وسَجن المنصور عبدالله بن الحسن والد محمد (النفس الزكية) وبطش بأقاربه وأثقل أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأغلال، وكان محمد (النفس الزكية) مختفياً واستبطأ الناس ظهوره فأخذوا يرسلون إليه الوفود، ثم خرج بالمدينة عام ١٤٥هـ، وخرج أخوه إبراهيم بن عبدالله بالبصرة، وكانت نهايتهما الهزيمة والقتل من قبل جيوش المنصور[الدرديري، ١٤٠٢هـ، ص٤٥،٤٦].

وكان لأهل العلم والدين في الخرجتين مواقف، فخرج مع إبرهيم كثير من القراء والعلماء: خرج معه أبو حنيفة وكان يجاهر في أمره، ويحث الناس على الخروج معه، وقال شعبة بن الحجاج الملقب بأمير المؤمنين في الحديث ت١٦٠هـ عن موقعة "باخَمْرَا" التي قتل فيها إبراهيم: "والله لهي عندي بدر الصغرى". ومثل ذلك كان موقف العلماء مع أخيه محمد في المدينة، فقد خرج معه ابن هرمز ـ شيخ مالك ـ، فقيل له: "والله ما فيك شيء، فقال: قد علمت، ولكن يراني جاهل فيقتدي بي[الخولي،١٣٧٠هـ، ص١٣٤].

وأما مالك فقد استفتاه أهل المدينة في الخروج مع النفس الزكية وقالوا: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر المنصور فقال: "إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين" فأسرع الناس إلى محمد ولزم الإمام مالك بيته[الطبري، د.ت، ج٧، ص٥٦٠].

ثم إن أبا جعفر نقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال، وكان ابتداء تقييدهم من الربذة بأمر أبي جعفر المنصور، وقد أشخص معهم محمد بن عبدالله العثماني، وكان أخا عبدالله بن حسن لأمه، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبدالله بن حسن، وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم بعد هلاك المنصور، وكان فيمن هلك في السجن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وقد قيل: والأظهر أنه قتل صبراً، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما،

وقلَّ من خرج منهم من الحبس، هذا كله ومحمد الذي يطلبه مختف بالمدينة، ثم خرج على أثر ذهاب أبي جعفر المنصور بأهله بني حسن من المدينة إلى العراق[ابن كثير، ١٤٢٤هـ، ص ص٤٩٩ــ٥٠٠].

ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة، صعد محمد ابن عبدالله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد – وكانوا قريباً من مائة ألف – فقال لهم في جملة ما قال: إني جعلتكم في حل من بيعتي، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فعل، ومن أحب أن يتركها فعل، فتسلل كثير منهم أو أكثرهم عنه، ولم يبق إلا شرذمة قليلة معه، وخرج أهل المدينة بأهلها منها لئلا يشهدوا القتال بها[ابن كثير، ١٤٢٤هـ ، ص ٥٠٦].

ومن هذه الأحداث المؤلمة المتكررة في زمن مالك ما حدث سنة ١٦٩هـ في خلافة الهادي، خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عندما قام والي المدينة عمر بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب بتشديد المراقبة على الهاشميين وجعل بعضهم يضمن بعضاً، نتج عنه قتال بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام، ثم خرج الحسين بن علي من المدينة المنورة إلى مكة بعد أغرب صراع تشهده في تاريخها، صراع يدور في قلبها، في الساحات الخارجية للمسجد النبوي، ومع ذلك يقف معظم أهلها منه على الحياد، صراع يشهد عدة جولات من المعارك دونما نتيجة حاسمة، وصراع يحجب أهل المدينة عن مسجدهم النبوي أحد عشر يوما فتتأذى النفوس وتمتلئ القلوب بالمرارة ، وتنقم على الذين حولوا المسجد إلى معسكر يبيتون فيه ويأكلون الطعام وينشرون فيه الأوساخ، ثم أحداث الملحمة الدامية التي وقعت في فخ قرب مكة يوم التروية ــ الثامن من ذي الحجة ــ وهو فصل آخر من فصول الصراع الدموي بين الهاشميين المطالبين بالخلافة والعباسيين، قُتِل فيه الحسين بن علي والحسن بن محمد (أبو الزفت) وبعض من معه وهروب بقية رجاله[بدر،١٤١٤هـ، ص٧١-٨١].

ولم يكن العباسيون ينسون في كل أطوار علاقتهم مع العلويين أنهم أولاد عمهم، وأن لهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ، حتى في الوقت الذي كانوا يخرجون فيه عليهم ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم[حسن،١٤١٦هـ، ص ١١٦].

وبعد البسط السابق للحالة السياسية في عصر مالك يمكن إجمال القول في ذلك في عبارات موجزة، وهي:

- الفترة الأولى من الدولة الأموية، والفترة الثانية من الدولة العباسية تتشابهان من ناحية هدوء الأحوال، واستقرار الحكم، وقلة إراقة الدماء، والاهتمام بأمر الجهاد.

- الفترة الثانية من الدولة الأموية، والفترة الأولى من الدولة العباسية، وهي فترة متصلة تبدأ من سنة ١٢٦هـ، وتنتهي بسنة ١٤٨هـ. تلك الفترة تتشابه من ناحية عدم الاستقرار، وكثرة ما أريق من دماء المسلمين؛ بسبب القتال بين الولاة والخارجين عليهم، وتعطل أمر الجهاد[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص٨٠].

كان الإمام مالك يفرح حينما يرى الإسلام ينتشر في قارة آسيا والهند وأوربا، والعلماء ينتقلون إلى البلاد المفتوحة ليعقدوا فيها حلقات العلم ويلقنوا الناس تعاليم دينهم الحنيف، والعمال يوزعون على البلدان والعواصم يحكمون بما أنزل الله[الكتاني،١٤٠٠هـ، ج٢، ص٥٧].

ولعل مالكاً أدرك مبكرًا أن الخروج يرهق الأمة ويشتت شملها ويفرق صفها، وليس من السهل الميسور على من استولى على السلطة بالقوة أن يفرط بكرسي السلطة أو يفرط في العض عليه وتوريثه لذريته، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمة ومصالحها والدعوة ومقاصدها ستضيع بين متطلع إلى السلطة مهما كان مقصده من الوصول إليها، ومستول عليها متشبث بها، ولا يدرى هل من سيصل إليها سيكون مثل المستولي عليها أو أسوأ حالا؟ وإن مواقف مالك كما سيأتي لتدل على أن الواقع الذي سمع مالك بعضاً من أنبائه أو شاهده قد رسخ

لديه قاعدة فكرية ما انفكت تترسخ لديه، وهي أن أول ما ينبغي أن يعنى به ويسعى إليه هو الاستقرار السياسي في الدولة، والأمن للأمة والنصح للأئمة، وذلك لما للعنف والصراعات من أثر سيئ وثمر نكد على الأمة والدولة وعلى الدين والدعوة[العوضي،١٤٢٢هـ، ص٥].

آثار الحالة السياسية على الإمام مالك:

وبعد ما تقدم من بيان الحالة السياسية في عصر مالك، وموقفه منها، يمكن إيجاز آثار تلك الأحوال على مالك من خلال موقفه منها، وذلك على النحو الآتي:

الأثر الأول: اجتنابه للسياسة، ومن مظاهر ذلك اجتنابه للولاة، باستثناء إتيانهم للوعظ كما تقدم، ولذلك لم يَلِ لهم ولاية، ولا اشتغل لهم بالقضاء.

الأثر الثاني: لعله قد تفرغ من اجتنابه للسياسة اجتنابه للبلاد التي كانت مركزاً للسياسة أو قريبة منها، وكذلك اجتنابه للبلاد التي كانت مقراً للخارجين على الولاة، أو منطلقاً لهم.

ومن هنا: لم يرحل مالك إلى تلك البلاد لأي غرض، حتى لطلب العلم، مع ما عُرِف من أهمية الرحلة لطلب العلم عامة، وللمشتغلين بالحديث خاصة.

الأثر الثالث: أن منهج الإمام مالك السياسي كراهيته الخروج على الولاة، ومحبته الهدوء.

الأثر الرابع: تَقَدَّم في بيان موقف الإمام مالك من الأحوال التي عاصرها أنه لم يكن راضياً عن سيرة بعض الخلفاء، ومع ذلك فإنه كان يأتي الخلفاء لوعظهم.

الأثر الخامس: يمكن أن تُعَدَّ محنة مالك واحدة من آثار الحالة السياسية التي عاصرها؛ فقد كان خلفاء بني العباس يأخذون البيعة لأنفسهم، ويكرهون الناس على أيمان البيعة.

لكنَّ مالكاً كان يروي أثراً في عدم لزوم طلاق المكره، فسعى حُسَّادُه لدى والي المدينة، وقالوا: إن مالكاً لا يرى أيمان بيعتكم هذه شيئاً ويروي حديثاً في هذا، وما زالوا بالوالي حتى دعا مالكاً، وضربه ضرباً شديداً.

الأثر السادس: كان للأحوال السياسية التي عاصرها مالك أثر في بعض فتاويه فعلى سبيل المثال: كان مالك يفتي بكراهية جهاد الأعداء مع بعض الولاة ولعل ذلك لأن سِيَرَ هؤلاء الولاة لم تكن مرضية عند الإمام مالك، فلما صنع الأعداء ما صنعوا، ونشطوا في مهاجمة بلاد المسلمين، غيَّر فتواه، وصار يفتي بجهاد الأعداء مع أولئك الولاة؛ من أجل دفع الضرر عن المسلمين[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص٨٧-٩٥].

وكان مالك يرى طاعة المفضول مع وجود الفاضل، وأنه إذا تغلب متغلب على المسلمين ولم يكن في أول أمره قد تولى برضا، ولكنه عَدْلٌ وسَكَنَ الناس إلى حكمه؛ فإنه لا يصح الخروج عليه، وتلزم طاعته؛ لأنه لا مطلب سوى العدل وقد تحقق واستقر، ورضي الناس وسكتوا فليس في الخروج إقامة للعدل ولا دفع لظلم. وإن كان الذي تولّى غير عادل لم يستجز مالك الخروج عليه، كما لا يدعو إلى محاربة الخارجين عليه ويقول: على المسلمين أن يصبروا ويجتهدوا في تقويمه، وإن خرجت عليه خارجة لا يعاونوه في قمعها؛ فإنه ظالم. وقد سئل عن قتال الخارجين على الخليفة، فقد قال له قائل: أيجوز قتالهم؟ فقال: إن خرجوا على مثل عمر بن عبدالعزيز. قال: فإن لم يكن مثله؟ فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما[خليفة،١٤١٣هـ، ص ص٤٤،٩١].

الحالة الاجتماعية في عصر الإمام مالك:

كان المجتمع الإسلامي في عهد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجتمعاً عربياً في معظمه، وكذلك كان المجتمع في عهد الخلفاء الراشدين ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ والدولة الأموية، أما عهد الدولة العباسية والتي كان قيامها على سواعد الفرس، فقد اختلف تكوين المجتمع حيث امتزجت الأجناس المختلفة

مع العنصر العربي وكان الفرس في هذه الفترة ــ الخلافة العباسية ــ يعهد إليهم بتولي المناصب العليا في الدولة وقيادة الجيوش[الدبسي،١٤١٥هـ، ص٢].

ولقد تميز العصر الذي عاش فيه مالك بتنوع أجناس المجتمع؛ ففيه الأحرار والأرقاء، وفيه العرب والعجم، وقد حصل امتزاج بين هذه الأجناس، حيث تملك الأحرار كثيراً من الجواري واستولدوهن، كما تزوج كثير من العرب نساء العجم، ولاشك أن لهذا الامتزاج أثره على النسل. وفي هذا العصر كثرت الأموال الواردة لخزائن الدولة وذكر بعض المؤرخين أرقاماً ضخمة للأموال التي كانت بخزائن بعض الولاة، لكن تلك الأموال فيما يبدو لم تعد بثراء على أفراد المجتمع كله؛ وذلك لأنها إما أن يُنْفَق أكثرها في الجهاد في سبيل الله، أو ينفق قسطٌ منها في الدفاع عن الدولة ويستأثر عِلْيَةُ القوم بالقسط الآخر، أو تحجز في خزائن الولاة ولا ينفق منها إلا القدر القليل[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص٩٧].

ويمكن أن يعزى ذلك أيضاً لما كان يوزعه الخلفاء على أهل المدينة حينما يزورونها في وقت الحج، وقد ثبت أن عدداً من الخلفاء الأمويين والعباسيين قد أنفقوا أموالاً عظيمة على أهل المدينة[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص١٠١].

آثار الحالة الاجتماعية على الإمام مالك:

الأثر الأول: أدت كثرة الأرقاء في البلاد عامة وفي المدينة خاصة إلى كثرة المسائل المتعلقة بالاستبراء، والعتق، والتدبير، والكتابة، وأمهات الأولاد، والولاء، ونلحظ أثر ذلك على فقه مالك في الكثرة الظاهرة في الأجوبة المنقولة عن مالك في هذا الشأن.

الأثر الثاني: إن الإمام مالك هو الوحيد من الأئمة الذي قال بعدم اشتراط التكافؤ في النسب بين العربية وغير العربي إذا أراد الزواج بها، وكبار شيوخه الذين أثروا في حياته، وكوّنوا منهجه الفكري والفقهي هم من الموالي، فنافع مولى

ابن عمر، وربيعة الرأي، وزيد بن أسلم، وسعيد المقبري، وعبدالله بن دينار، وابن هرمز، وعطاء الخرساني، وموسى بن عقبة، وأبو الزبير، وأبو الزناد، وأيوب السختياني، والأعرج المكي، وحميد الطويل، وإبراهيم بن عقبة، وإبراهيم بن أبي حكيم، وغيرهم كثير كلهم من الموالي، وكذلك من أخذ عنه العلم. أما قصة الجفاء الذي كان بينه وبين محمد بن إسحاق، فسببه أن ابن إسحاق كان شيخ المؤرخين والنسّابين في عصره، وهو من الموالي، فسُئل عن نسب الإمام مالك، فكأنه لمزه بعدم ثبوت كونه من بني أصبح، القبيلة العربية اليمنية القحطانية المعروفة، وقال: أنا بيطري نسبه. فغضب الإمام مالك لذلك، وكان هذا هو سبب النفرة بينهما، لا لكونه من الموالي.

الأثر الثالث: لعل كثرة الأرقاء في المدينة قد أدت إلى رخص أثمانهم، ومن ثم استخدمهم الناس؛ وهذا يُفَسِّر ما ذكر في بعض الأخبار من وجود سودان عند مالك، ولعل هذا الوضع يفيد أن استخدام الرقيق لا يدل على زيادة في الرفاهية، بل هو معتاد، أو قريب من المعتاد في المدينة.

الأثر الرابع: مجتمع المدينة شارك مجتمع البلاد عامة من جهة تعدد أجناس المجتمع، وزاد في هذه الناحية ولكنها مؤقتة بالزيارة، وهذه الأجناس تنتمي لبلاد متعددة، ولكل بلاد أحوالها؛ فتنوعت المسائل الفقهية تبعاً لذلك، وهذه المسائل يحتاج الناس لمعرفة آراء العلماء فيها، وكان مالك في تلك الفترة من أجل العلماء، إن لم يكن أجلَّهم، لذلك سُئِل كثيراً وأجاب كثيراً، وكان يتفرد بالفتوى في المدينة، حيث صدر أمر الوالي بألا يفتي في المدينة إلا مالك.

الأثر الخامس: يترجح أن هذه الأجناس التي كانت تزور المدينة، ثم ترحل منها، ذاتُ أثر كبير في نشر مذهب مالك في البلاد التي تنتمي لها هذه الأجناس.

ولعل أصدق مثال على ذلك، أن مذهب مالك انتشر في أقصى بلاد المسلمين من الناحية الغربية ــ أي في الأندلس والمغرب ــ حتى أنه لا يزال في بلاد المغرب هو المذهب السائد إلى اليوم.

الأثر السادس: أدى النشاط التجاري في الأسواق، وما جَدَّ فيها من تصرفات، إلى حدوث مسائل جديدة سئل عنها مالك، فكان لذلك أثر في إثراء فقه مالك في هذا الجانب[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص١٠١-١١٠].

الحالة العلمية في عصر الإمام مالك:

في العصر الذي عاش فيه الإمام مالك كانت المساجد أهم مكان لإلقاء العلوم وتلقيها، حيث تعقد فيها حِلَق العلماء لتعليم العلوم الشرعية واللغوية. وكانت العلوم في أول ذلك العصر تُتَناقل بالحفظ في غالب الأحيان، وفي منتصف ذلك العصر كانت معظم العلوم قد توجهت للنضج والكمال، فشرع العلماء في تدوينها، مع محاولة ترتيبها. وقد تميز هذا العصر بنشاط علمي كبير، تمثل في وجود عدد كبير من أئمة المحدثين والفقهاء واللغويين ونحوهم، في عدد من البلدان، كمكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر واليمن وغيرها[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص١١١-١١٢].

ففي منتصف القرن الثاني من العصر العباسي بدأ التأليف في الحديث، كما بدأ في العلوم الأُخرى، ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة، ففي مكة جمع الحديثَ ابن جُرَيج(الرومي الأصل) المتوفى نحو سنة١٥٠هـ، وفي المدينة محمد بن إسحاق ت١٥١هـ، ومالك بن أَنس ت١٧٩هـ، وبالبصرة الربيع بن صَبِيح ت١٦٠هـ، وسعيد بن أبي عَرُوبَة ت١٥٦هـ، وحماد بن سَلَمة ت١٧٦هـ، وبالكوفة سفيان الثوري ت١٦١هـ، وبالشام الأوزاعي ت١٥٦هـ، وباليمن مَعْمّرت١٥٣هـ، وبخراسان ابن المبارك ت١٨١هـ، وبمصر الليث بن سعد ت١٧٥هـ[أمين، ١٣٤٣هـ، ج٢، ص١٠٧].

ويُعَدّ كتاب الموطأ من أوائل الكتب التي أُلّفت في الحديث والفقه، وقد نشره الآخذون عن مالك في الأمصار، فمحمد بن الحسن في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبدالله بن وهب وعبدالرحمن بن القاسم وعبدالله بن عبدالحكم وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان، وكان له أثر كبير في الحركة العلمية الدينية على اختلاف العصور[أمين، ١٣٤٣هـ، ج٢، ص٢١٥].

ويرجع النشاط العلمي في ذلك العصر إلى أسباب متعددة؛ من أهمها: النشاط الذاتي لدى العلماء، حيث إنهم يرون أن ما يقومون به من جهد هو خدمة للشريعة المطهرة، ويحتسبون فيه الأجر لأنهم يرونه من أعمال البر، هذا بالإضافة إلى تشجيع الخلفاء والوزراء للعلماء، وذلك بإحضار العلماء لمجالسهم، والسماع منهم، ورفع مكانتهم، وإجزال العطايا لهم، وليس ذلك بمستغرب على الخلفاء في ذلك العصر؛ لأنهم – في الغالب – إما أن يكونوا من أهل العلم، أو ممن يحبون العلم وأهله. وفي ذلك العصر تُرْجِمَت كتب الطب والهندسة والكيمياء والفلك والفلسفة، وأول بداية للترجمة في ذلك العصر كانت على يد خالد بن يزيد من معاوية بن أبي سفيان، وممن روى عنه الزهري، وكانت وفاته سنة٩٠هـ وقيل: سنة٨٤هـ، وأول خليفة ترجمت له الكتب إلى العربية هو المنصور، وقد نشطت حركة الترجمة بعده كثيراً[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص١١٣-١١٤].

ووجد في هذا العصر عدد من المعتقدات الباطلة، التي كان لها أثر سَيِّئٌ على المسلمين والعلوم الشرعية، منها: الزندقة، والشعوبية، ومقالة الخوارج، والتشيُّع، ومقالة الجهمية، والقول بالقدر، والاعتزال، والإرجاء، والتصوف، وتصديق المنجمين، ولذلك وقف المهدي من الزنادقة موقفاً حازماً، فتتبعهم، وقتل كل من ثبت اعتقاده للزندقة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وقد تبعه ابناه في محاربة الزندقة. كما أمر المهدي بتأليف الكتب في الرد على الزنادقة. وقد ظهر تصديق المنجمين لدى بعض خلفاء العباسيين في عدة وقائع. هذا مجمل لأهم الاعتقادات والمقالات التي وجدت في هذا العصر، وقد كان لأكثر أرباب تلك المقالات أثر ظاهر في وضع الأحاديث[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص١١٤-١٢٢].

وكان من مظاهر النشاط العلمي في ذلك العصر وجود مناظرات بين أرباب المقالات السابقة مع بعضهم، وبينهم وبين أهل السنة. كما كانت هناك مناظرات بين الفقهاء أنفسهم، وبين النحويين واللغويين، وبين بعض الفقهاء مع بعض النحويين واللغويين، وقد كان للصنف الأخير أثر في لفت نظر الفقهاء

لأهمية اللغة بالنسبة للفقه. وقد كان الإمام مالك يكره المناظرات في أمور العقيدة، أما المناظرات في المسائل الفقهية فقد كان له مشاركة فيها، لكنه كان مقتصراً على المناظرات التي يرى أن المقصود منها طلب الحق، لا مجرد المناظرة. وكان الإمام مالك يحضر مجالس النقاش التي تجري في مجلس شيخه ابن هرمز، وأحياناً يشارك شيخُه الآخر ــ ربيعة ــ في ذلك النقاش. وكانت تلك المناظرات تجري في مجالس الولاة أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تجري في مجالس العلماء. كما كانت هناك مراسلات بين طائفة من العلماء في أمور علمية. ولاشك أن لتلك المناظرات والمراسلات أثراً كبيراً في إثراء المادة العلمية، وإيجاد نوع من الدقة والعمق في بحث المسائل التي يجري حولها النقاش[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص١٢٣-١٢٤].

وفي هذا العصر ظهرت بوضوح طريقتان في الاستنباط:

الأولى: طريقة أهل الرأي، ومقرها العراق، وزعيمها الإمام أبو حنيفة، المتوفى سنة ١٥٠هـ.

الثانية: طريقة أهل الحديث، ومقرها الحجاز، وخصوصاً المدينة، وزعيمها الإمام مالك، المتوفى سنة ١٧٩هـ

آثار الحالة العلمية على الإمام مالك:

يعد الإمام مالك أحد العلماء البارزين في ذلك العصر، ولاشك أنه تأثر كثيراً بالحالة العلمية في عصره، وفيما يلي أبرز هذه الآثار:

الأثر الأول: أدى توافر العلماء في ذلك العصر في البلاد عامة وفي المدينة خاصة إلى وجود جوٍّ علمي يبعث على النشاط في طلب العلم، ويوفر للطالب معظم العلوم التي يرغب فيها.

الأثر الثاني: أدى ظهور حركة التدوين في ذلك العصر إلى بعث الإمام مالك على المشاركة فيها، وأبرز مشاركة له في ذلك المجال تأليفه لكتاب "الموطأ".

الأثر الثالث: من المحتمل أن حركة الترجمة التي حصلت في ذلك العصر أتاحت لمالك الاطلاع على شيء من كتب الفلك المترجمة، أو العلم بما فيها.

وقد ألف مالك كتاباً في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر، فربما كان تأليفه لهذا الكتاب من جراء تأثره بإطلاعه على كتب الفلك المترجمة.

الأثر الرابع: تقدم أن بعض أصحاب المعتقدات الفاسدة التي ظهرت في هذا العصر كان لهم جهد ظاهر في وضع بعض الأحاديث، ومقصودهم من وضع تلك الأحاديث تأييد بدعهم والدعوة لها، وتلك الأحاديث الموضوعة تشتهر عند أصحاب المقالة الذين وضعوها. وهذا الأمر دعا الإمام مالك إلى أن يضع مقياسين لرد بعض الأحاديث:

الأول: يتعلق بالسند، وهو أن الراوي إذا كان مبتدعاً يدعو إلى بدعته فإنه لا يُقبل حديثه.

الثاني: يتعلق بالمتن، وهو أنه إذا كان الحديث مما يستدل به أصحاب البدع تركه.

الأثر الخامس: كان من نتائج ظهور المقالات المتقدمة في عصر مالك أنْ سُئل الإمام مالك عن كثير من المسائل التي يتحدث فيها أصحاب تلك المقالات، وكان لمالك إجابات متعددة عن تلك الأسئلة، ولذلك أُثر عن مالك أقوال متعددة في تلك المسائل، منها: أنه كان يعتقد أن القرآن كلام الله، وأنه غير مخلوق، وكان ينكر أشد الإنكار على من يقول بخلق القرآن. ومنها: أنه يقول بثبوت رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة. ومنها: أنه كان ينكر مقالة القدرية، وقد ألف كتاباً في الرد عليهم. ومنها: أنه كان ينكر قول المرجئة: إن العمل ليس من الإيمان، وكان يمتنع من جدال المتهمين بالإرجاء. ومنها: أنه سُئِل عن الإيمان: أيزيد وينقص؟ ومنها: أن تصديق المنجمين قد وجد في ذلك العصر، فربما جاء تأليف الإمام مالك لكتابه في النجوم لبيان الجائز من علم النجوم والممنوع[الشعلان، ١٤٢٤هـ، ص ص١١١-١٤٠].

ويرى الباحث أن المعلم يؤثر ويتأثر بما في مجتمعه، وربما أثر ذلك في فكر تلاميذه وقاصديه، ولا يعني ذلك عدم مخالفة أستاذهم متى ما رأوا الصواب. كما يرى أن طالب العلم بحاجة ماسة إلى الإخلاص في قوله وعمله، وإلى الصبر والجلد عند الطلب، فربما واجه صعوبات وعقبات في طريقه، ويرى أن يكون له أثر إيجابي في بيئته ومجتمعه.

الفصل الثالث

معالم الفكر عند الإمام مالك بن أنس

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: معالم الفكر الديني عند الإمام مالك.

المبحث الثاني: معالم الفكر الاجتماعي عند الإمام مالك.

المبحث الثالث: معالم الفكر السياسي عند الإمام مالك.

المبحث الرابع: معالم الفكر الاقتصادي عند الإمام مالك.

المبحث الأول: معالم الفكر الديني عند الإمام مالك

ظل الإمام مالك طيلة حياته الطويلة يسخِّر مواهبه الفكرية ورصيده العلمي بالخصوص لفائدة الطلبة والسائلين وعامة المستفيدين، ولم يكن يرى من المناسب تضييع الوقت فيما لا يفيد الناس فائدة مباشرة تعود عليهم بالنفع العميم في حياتهم اليومية، وتقدم لمشاكلهم الحلول الشرعية العملية، ولذلك كان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان، حتى كان له حاجب يأذن أولا للخاصة، فإذا فرغوا، أذن للعامة. وكثيرا ما كان يقول: "لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل"[الناصري،١٤٠٠هـ، ص ٧٦].

١ - إخلاصه:

طلب الخليفة أبو جعفر من مالك أن يجعل كتابه الموطأ مرجعا للحكم عند الناس بطريق الإلزام، فامتنع الإمام مالك من أن يحمل جميع الناس على مذهبه وتقليده، وخوفه من الله تعالى، مع قول الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ: "ما ناظرتُ أحداً على الغلبة، وبودي أنَّ جميعَ الخلْق نقلوا كتبي وكتبوها وتفقهوا فيها ولم يُنْسَبْ إليَّ شيءٌ منها". كل منهما مجتهد ينطق بحسب ما يؤديه اجتهاده[الراعي، ١٩٨١م، ص١٩٢].

وأخرج ابن سعد عن إسماعيل بن عبدالله بن أبي أويس قال: "كان مالك يعمل في نفسه ما لا يلزم الناس، وكان يقول: لا يكون العالم عالماً حتى يعمل في نفسه بما لا يفتي فيه الناس، يحتاط لنفسه ما لو تركه لم يكن عليه فيه إثم"[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص٣٣].

ويتردد مالك ويفكر في الفقه أو يبكي وهو يذكر اليوم الآخر فيقول: "إني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم". وذات يوم ألح عليه السائل في الجواب فقال: ويحك تريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله. فأحتاج أنا أولاً أن أنظر كيف خلاصي ثم أخلصك[الجندي، د.ت، ص٨٨].

والذي دفع مالكا إلى الإخلاص أن العلم الذي طلبه كان يتصل بأصل الدين، وهو قربة يتقرب بها إلى الله ــ تعالى ــ والأعمال بالنيات فلا ينال من الخير إلا بمقدار إخلاص النية، واحتسابها لربه[خليفة، ١٤١٣هـ ، ص ص٦٤-٦٥].

ومن الأمور التي نهجها وسار عليها في فتواه لمن سأله وإجابته على المسائل تدل على إخلاصه واحتسابه ذلك لله تعالى، حيث إنه التزم الإفتاء فيما يقع من المسائل دون أن يفرض خشية أن يضل وأن يبعد عن سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن يندفع إلى المغالاة في الأمور وفرض غير المعقول، وكان تلاميذه يجتهدون أحياناً في أن يحملوه على الإجابة عن أمور لم تقع لأن الشغف العقلي وتطبيق الأصول التي أخذوها قد يدفعهم إلى السير وراء الفرض والتقدير فلا يطاوعهم ولا ينساق وراء فروضهم وتقديرهم بل يقف عند حد الواقع الذي يجب على المفتي أن يتعرف حكمه ما استطاع إلى ذلك سبيلا[أبانمي، ١٤٠٥هـ، ص٦٦].

ومن الأمور التي نهجها أيضا أنه في إجابته على المسائل يكثر من قول "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ويقول عن إجابته: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فإن وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. وهذا دليل على إخلاصه وتقواه لربه في فتياه وإجابته على المسائل، وشتان بينه وبين من مراده غير ذلك، فإنه أبعد ما يكون من الالتزام بذلك، لأن غرضه ونيته ليست لله، إنما هو للجاه والهوى نعوذ بالله من ذلك[أبانمي، ١٤٠٥هـ ، ص٧١].

وقال ابن وهب: كان في كم مالك منديل مطوي على أربع طاقات، فإذا سجد سجد عليه، فقيل له في ذلك، فقال: أفعله لئلا يؤثر الحصى في جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل. وقال أيضا: وكان أكثر عبادة مالك في السر بالليل والنهار حيث لا يراه أحد[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٩٨].

ونقل القاضي عياض عن القطان أنه قال: كان عِلْمُ الناس في ازدياد وعِلْمُ مالك في نقصان، ولو عاش مالك لأسقط علمه كله. قال القاضي: يعني تحرياً[الراعي،١٩٨١م، ص١٨٣].

ومن إخلاصه إحساسه بخطورة النقل عنه، فقد نقل القاضي عياض عن القعنبي ــ أحد تلاميذ الإمام مالك ــ، قال: دخلت على مالك فوجدته باكياً فسألته، فقال: ومن أحق بالبكاء مني؟ لا أتكلم بالكلمة إلا كتبت بالأقلام، وحملت إلى الآفاق[الراعي،١٩٨١م، ص١٨٥].

وأما تركه الفتوى فيما لم يقع، فقد روي أن الإمام مالكاً ــ رحمه الله ــ كان إذا سُئل عن مسألة يقول للسائل : أوقعت؟ فيقول له: لا، فيقول: انظرني حتى تقع، وذلك لكثرة خوفه من الله تعالى، والحياء من أن يراه يُفتي بغير مراده سبحانه وتعالى. وكان كثيراً ما يتلو قوله تعالى:M l m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ L[يونس:٥٩] [الراعي،١٩٨١م، ص١٦٨].

وجلس لتدريس العلم وهو ابن سبع عشرة سنة وأشياخه متوافرون، فمتع الله المسلمين بطول حياته فعاش قريباً من تسعين سنة[الزواوي، ١٤١١هـ، ص٤٩].

٢ - تثبته في الإفتاء:

إن الإمام مالكاً كان مضرب المثل في التثبت في الفتوى، والتحري في الاجتهاد، والاحتياط في الدين. ومن مأثور كلامه في هذا الباب: "ربما وردت عليَّ المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم". فقيل له: يا أبا عبدالله، والله ما كلامك عند الناس إلا نقر في حجر. ما تقول شيئاً إلا تلقوه منك" فأجاب قائلاً: " فمن أحق أن يكون هكذا إلا من كان هكذا". ومن مأثور كلامه أيضاً: ما شيء أشد عليَّ من

أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، لأن هذا هو القطع في حكم الله[الناصري،١٤٠٠هـ، ص ٧٦].

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحارث بن مسكين عن يزيد ــ شيخ من أهل مصر، صديق لمالك بن أنس ــ، قال لمالك: يا أبا عبدالله، يأتيك ناس من بلدان شتى، قد أناخوا مطاياهم، وأنفقوا نفقاتهم، يسألونك عما جعل الله عندك من العلم، فتقول: لا أدري! فقال: أبوعبدالله: يأتيني الشامي من شامه، والعراقي من عراقه، والمصري من مصره فيسألونني عن الشيء لعلي أن يبدوا لي فيه غير ما أجيب به، فأين أجدهم؟. قال عمرو: فأخبرت الليث بن سعد بقول مالك هذا، فبكى ثم قال: مالك والله أقوى عليه من الليث، والليث والله أضعف فيه من مالك[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص٣٤].

ولقد يجيئه الرجل بعد ستة أشهر مشاها، فيسأله عن مسألة فيقول له مالك: "أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها" فيقول الرجل من أهل المغرب: ومن يعلمها؟ فيقول الإمام مالك: "من علمه الله"، أو يقول: "ما سمعنا بهذه المسائل في بلدنا، ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها"، فيقول الرجل: يا أبا عبدالله تركت خلفي من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك، فيقول الإمام مالك غير مستوحش: "إذا رجعت فأخبرهم أني لا أحسن"[الجندي، د.ت، ص٨٧].

وجدَّت الدواعي لتدوين الموطأ، وجاء طلب الخليفة متفقاً مع تلك الدواعي التي ارتآها الإمام مالك، وأجاب نداءها من تلقاء نفسه، ولكن لم يقدر أن يتم التدوين في عصر أبي جعفر المنصور، فقد تم تدوين الموطأ حوالي سنة ١٥٩هـ بعد أن توفي المنصور، وقيل في أواخر أيامه، كما أن أبا بكر بن حزم لم يجمع السنن إلا بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه. ويظهر أن مالكاً أخذ وقتاً طويلاً في تدوينه، وتمحيصه، حتى استطاع أن ينشره على الناس، فإن طلب أبي جعفر تدوينه كان حول سنة ١٤٨هـ، ونشره على الناس كان حول سنة ١٥٩هـ أي الفترة بين الطلب والنشر كانت نحو إحدى عشرة سنة قضاها الإمام مالك في

جمعه وتمحيصه، ولقد قالوا أنه استمر يمحِّص فيه إلى أن مات، فكان كلما راجعه حذف منه بعض ما كان قد أقر[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٨٦].

٣- موقفه من المناظرات:

لقد ورد الجدل في القرآن الكريم: تسعة وعشرين مرة، كلها في سياق الذم، إلاّ في ثلاثة مواضع: الأول في سورة النحلM v w x y z { | ~ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴿١٢٥﴾ L، والثاني في سورة العنكبوتM " # $ % & ' ( ) ... > L، والثالث في سورة المجادلةM ! " # $ % & ') ... 4 L، أما بقية المواضع في القرآن الكريم، فإما أن تكون في سياق عدم الرضا عن الجدل، وإما عدم جدواه، أو يفقد شرطا أساسيا كطلب الحق، أو يكن بغير علم، ومن الآيات في ذلك قول الله تعالى:M > = > ? @ A B C D E F G H L[الحج: ٨]، وقوله تعالى: M... L M N O P Q R T U V W X L[الكهف:٥٦]، وغيرها من المواضع. ويخلص الباحث من ذلك إلى أن الجدل لم يمدح على إطلاقه، وإنما هو مقيد بالحسنى أو بالرغبة في الوصول إلى الحقيقة[زمزمي، ١٤١٤هـ، ص٢٤].

فقد روي عن الإمام مالك كراهته للجدل، فعن إسحاق بن عيسى قال: قال الإمام مالك: "كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عليه السلام على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجدله"[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص٣٤].

وقال القاضي عياض: قال مَعْنٌ: انصرف مالك يوماً، فلحقهُ رجلٌ يقال له: أبو الجويرية، متَّهمٌ بالإرجاء. فقال: اسمع مني، قال: احْذَرْ أن أشهد عليك. قال:

والله ما أُريدُ إلا الحقَّ، فإن كان صواباً فَقُلْ به، أو فتكلم. قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتُك؟ قال: اتَّبعتك. قال: فإن جاءَ رجل فكلمنا فغلبنا؟ قال: اتَّبعناه. فقال مالك: يا هذا، إنَّ الله بعث محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدين واحد، وأراك تَتَنَقَّل[الذهبي،١٤٠٢هـ، ج٨، ص١٠٦].

وعن مالك قال: "الجدالُ في الدين ينشئ المِراء، ويذهبُ بنور العلم من القلب ويُقسِّي، ويُورث الضِّغن"[الذهبي،١٤٠٢هـ، ج٨، ص١٠٦].

وكانت المناظرات الفقهية في موسم الحج، فترى أبا حنيفة يتذاكر في المسائل الفقهية مع مالك، ويتناظر مع الأوزاعي، وكانت تلك المناظرات الفقهية أخصب، وأكثر إنتاجاً من غيرها، وإن مالكاً ــ رضي الله عنه ــ كان ينفر من الجدل العلمي الذي يكون الغرض منه السبق، والفوز، ولذلك جابه الرشيد بقوله: ليس العلم كالتحريش بين البهائم والديكة. لما طلب منه مناظرة أبي يوسف[أبوزهرة، ٢٠٠٢م، ص١٢٩].

وكان الإمام مالك يعد الجدل في الدين لا ينتج شيئاً، وأنه يفسد، ولكنه قد أثر عنه أنه كان يناظر العلماء المخلصين في كثير من الأحيان، فهو يناظر أبا حنيفة حتى يعرق من المناظرة معه، ويقول لليث: إنه لفقيه يا مصري، ويناظر أبا جعفر المنصور، ويرسل الرسائل لمن يخالفونه يدعوهم إلى رأيه، ولعله ما كان يعتبر تلك المناظرات التي يقصد بها إلى طلب الحق المجرد من قبيل الجدل الذي نهى عنه؛ لأن الأولى لا يقصد منها الغلب واجتياز المجالس، بل يقصد بها طلب الحق، وهي خالية من المراء وتحري الغلط، بل تحري الحق، والإخلاص يسودها[أبوزهرة، ٢٠٠٢م، ص ص ١٢٩-١٣٠].

ومن أجل هذا بغِّضت إليه أقوال الفرق الإسلامية في العقائد، لأنها أثارت أموراً لم يثرها السلف الصالح، وليس من مصلحة المسلمين إثارتها، ولأنها قامت في دراستها على النظر العقلي المجرد، وسلكت سبيل الجدل والمراء، ولم يسلك السلف الصالح ذلك المسلك، والعقل من غير هداية دينية يسير في متاهة، يضل

السائر فيها، ويكون كحاطب ليل، ولذلك باعد بينه وبين هذه الفرق، ولم يسلك طريقها، ولقد قال في ذلك أبو طالب المكي: "كان مالك أبعد الناس من مذاهب المتكلمين، وألزمهم لسنة السالفين، من الصحابة والتابعين". وكان إذا سئل عن السنة لم يدخلهم في سلكها، ولذلك قال له رجل مَن أهل السنة يا أبا عبدالله؟ قال: "الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي، ولا رافضي، ولا قدري"[أبوزهرة، ٢٠٠٢م، ص١٥٩].

٤- سعة علمه:

قال سحنون: جاء وافد من أهل مصر بسؤالاتهم لربيعة، فوجده قد مات، قال: فلم أرد أن أرجع بغير جواب، فرأيت في المسجد حلقة يخوضون في العلم، فجلست إليهم وأخبرتهم أمري، وقلت لهم: إن كان عندكم علم فأجيبوني أو فأرشدوني. فأشار جميعهم إلى مالك بن أنس، وهو يومئذ شاب جالس إلى عمود وحده، ولم أدع حلقة إلا جلست إليها، وسألتهم فكلهم يدلني عليه، فأتيته فأخبرته بخبري وبما دلني القوم عليه؛ وذكر أنه سأله فكلما قرأ عليه مسألة بكى، ثم أجاب. قال سحنون: بكى حين عرفها وعرف أنه احتيج إليه فيها[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٤٨].

ودفع مالكاً إخلاصه ونزاهته إلى ألا يفتي في مسائل تتصل بالقضاة وأحكامهم. قال تلميذه ابن وهب :"سمعت الإمام مالكا يقول، فيما يسأل عنه من أمر القضاة هذا من متاع السلطان"، فهو ما كان يعترض لأحكام القضاة بنقد. وهذا موقف يختلف فيه عن أبي حنيفة ــ رحمهما الله ــ وكلاهما كان في مسلكه مخلصاً، فأبو حنيفة دفعه إخلاصه للفقه وللدين لأن ينقد قضاء القاضي عبدالرحمن ابن أبي ليلى في درسه، حتى اضطر إلى الشكوى منه للولاة والأمراء، وحتى صدر الأمر بالحجر على أبي حنيفة من الفتوى زمناً حرم الناس فيه من فقهه العميق الدقيق. ودفع الإخلاص مالكا لئلا يعترض لأحكام القضاة علناً؛ لأن التعرض لها بالنقد على الملأ من تلاميذه وأصحابه يجرئ الناس على عصيانها،

فتذهب هيبتها وجلالها، فلا تجتث المنازعات من جذورها. هذان موقفان دفع إليهما الإخلاص، وهما متعارضان، دفع إلى الأول الإخلاص للعلم والحقيقة، ودفع إلى الثاني الإخلاص للنظام والفصل بين الناس. ولو أن لنا أن نختار لاخترنا موقف إمام دار الهجرة ــ رحمه الله ــ وخصوصا أنه يجمع إلى موقفه أنه كان يوالي النصح للقضاة، ويرشدهم فيما بينه وبينهم إلى الحق الصريح الذي لا مجال لإنكاره، فهو يهديهم من غير ما تنقيص ولا تهوين للأحكام[أبو زهرة، د.ت، ص ص٣٨٢-٣٨٣].

٥- مكانته العلمية:

قيل لابن هرمزــ أحد شيوخ الإمام مالك ــ: نسألك فلا تجيبنا ويسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما؟ فقال: دخل عليَّ في بدني ضعف ولا آمن أن يكون قد دخل عليَّ في عقلي مثل ذلك، وأنتم إذا سألتموني عن الشيء فأجبتكم قبلتموه، ومالك وعبدالعزيز ينظران فيه، فإن كان صواباً قبلاه، وإن كان غيره تركاه. وقال محمد بن سعد: كان مالك ثقة مأموناً، ثبتاً، فقيهاً، ورعاً حجة، عالماً[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٣٩].

وقال الشافعي: كان محمد بن الحسن إذا حدث بالعراق عن مالك امتلأ منزله حتى يضيق بهم الموضع، وإذا حدثهم عن غيره من شيوخ الكوفة لم يجبه إلا اليسير، فكان يقول: ما أعلم أحداً أسوأ ثناءً منكم على أصحابكم[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٨١].

قال بشر بن عمر: جئت مع مالك من منزله حتى دخل المجلس، فانتهى إلى حلقة فوسع له في صدرها، فأبى وجلس حيث انتهى المجلس، فقلت في نفسي هذا رجل منصف، كما لا يوسع لأحد في مجلسه، لا يقعد في صدور مجالس الناس[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٠٢].

وكان مالك يأتي مكة في الموسم، ويلتقي بالعلماء يبحث معهم ويبحثون معه، فقد التقى بأبي حنيفة، وبالليث بن سعد، وبالأوزاعي، وبأبي يوسف، ومحمد، وكلّهم له عنده مسألة، أو هو له عندهم مسألة. وبمثل هذا يحيى العلم وتتفتح القرائح[الدقر، ١٤١٩هـ، ص٥٩].

٦- موقفه من الملل والنحل:

لقد كانت هناك أمور هي السبب في حدوث منازعات فكرية، والتحام بين آراء وعقائد متباينة مضطربة، وإذا كان الإمام مالك قد عاش في هذا العصر، فلابد أن يكون قد وصل إلى مسمعه شيء من تلك الأفكار المتضاربة، وقد ورد في أثناء الحديث عن حياته على أنه كان على علم بشؤون النحل المتباينة ولكنه ما كان يخوض في شأنها، وما كان يسمح لأحد أن يجري المناقشة حولها؛ لأنه ما كان يسوغ للعالم أن يتكلم بكل ما يعلم، بل كان يطالبه بألا يتكلم إلا بما يفيد، ويطيقه السامعون، وتستسيغه نفوسهم. نعم إنه لم يكن على علم بها بالقدر الذي كان يعلم به أبو حنيفة الذي عاصره، لأن أبا حنيفة كان بالعراق موطن ذلك التناحر، وكان مالك بالمدينة، وهي نائية في الجزيرة العربية، ولم يكن العلم الرائج فيها من ذلك الصنف الذي كان يروج في البصرة والكوفة، إذ العلم الذي كانت تروج سوقه هو علم الكتاب والسنة والاستنباط الفقهي تحت ظلهما، وعلم مالك كان ذلك، ثم علم الملل والنحل وغيرها[أبوزهرة،٢٠٠٢م، ص١٢٨].

٧- رأيه في اختلاف الأحكام والأقضية:

ويظهر أن مالكاً لم ينظر إلى اختلاف الأحكام والأقضية تلك النظرة التي كان ينظرها ابن المقفع، بل كان يرى أن الاختلاف ضروري لتكون الأحكام متوافقة مع عرف كل إقليم ما دامت لم تخالف نصاً من كتاب أو سنة، ولكي لا يكون الناس في ضيق، فإنه يروى أنه قال مرة للرشيد عندما كرر عليه طلب نشر الموطأ: يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة الله على هذه الأمة، كل يتبع ما صح عنده، وكل على هدى، وكل يريد الله[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٨٧].

٨- وصيته لتلاميذه:

قضى الإمام الشافعي عشر سنوات في حلقة شيخه ــ الإمام مالك ــ وعندما افترقا وصاه مالك قائلاً له: لا تسكن الريف فيضيع علمك، واكتسب الدرهم ولا تكن عالة على الناس، واتخذ لك ذا جاه ظهراً لئلا تستخف بك العامة، ولا تدخل على ذي السلطنة إلا وعنده من يعرفك، وإذا جلست عند كبير فليكن بينك وبينه فسحة لئلا يأتي إليه من هو أقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شيء[الجندي، د.ت، ص٩٧].

المبحث الثاني: معالم الفكر الاجتماعي عند الإمام مالك

من النظرة العامة في الوراثة ما يقال في وصف اليمنيين من أنهم أهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة؛ وهي معان قد تفسر غير قليل من سلوك الإمام مالك الاجتماعي والسياسي، وصلاته بالحكام، وعمله مع الخلفاء، بل تفكيره في هذا السلوك من الناس، وإفتائهم فيه ونصحه لهم؛ فهو في جملة أمره ميال إلى الطاعة، وإلى لزوم الجماعة، مسالم في ذلك مسالمة قد نراها مسرفة حين نزنها فيما بعد، وهو حتى في الأسلوب العلمي، ينزع إلى هذا السلم، فإذا قيل له: الرجل عالم بالسنة، أيجادل عنها؟ قال هو: لا، ولكن ليخبر بالسنة، فإن قبل منه وإلا سكت، ولا بعد في أن تبدو أمثال هذه الظواهر آثارا لوراثة عامة بعيدة جاءته من خصائص قومه الكبرى[الخولي، د.ت، ص١٣٣].

فإذا كان النظر إلى الوراثة القريبة عن أسرته نفسها أما وأبا، فقد تكون وداعة الأب التي تسببها آفته إذ هو مقعد، قليل الحركة، مرجعا لشيء من ميل إلى العزلة، وما يتصل بذلك من انطواء على النفس نرى شيئا غير قليل منه، في تصرفات الإمام مالك، وسلوكه العملي في الحياة؛ وإن لم يكن ذلك عن وراثة فإنه ليكون عن النشأة في تلك البيئة الخاصة، وما يسود فيها من ظواهر وعوائد وتصرفات. وأما الأم فهي التي سمعنا شيئا عنها في حياته، إذ تُعِدُّه وتدفعه وتنصحه، فنشعر منها بقدر من الحيوية في وجود الإمام مالك، وهي ــ أي أم الإمام مالك ــ غير واضحة الصفة، فقد قيل: إنها مولاة لتيم، كما قيل: إنها يمنية أزدية من أنفسهم، فهل نستمع لما يقال عن هؤلاء الأزد، وأنهم قوم ملاحون حتى يقول فيهم الشاعر: إذا أزدية ولدت غلاما... فبشرها بمــلاح مجيــد[الخولي، د.ت، ص ص ١٣٣-١٣٤].

وعند الحديث عن الحالة الاجتماعية في العصر الذي أظل مالكاً، وكان مالك على علم بها أو عائشاً فيها. فإن أظهر مظاهر هذه الحياة أن المدن الإسلامية كانت تموج بعناصر مختلفة من فرس وروم وهنود وعرب، وقد اتسعت رقعة

الدولة الإسلامية، فهي من الأندلس غرباً إلى الممالك التي تصاقب الصين شرقاً، وكثرت فيها الحواضر، وقد تفرق في القديم أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في عصر عثمان ــ رضي الله عنه ــ وما وليه من العصور، فكان لكلٍّ تلاميذ، وآراء فقهية، وإلمام بما عليه أهل تلك المدن، ثم إن كل مدينة لها خصائصها الاجتماعية، والتجارية، والعلمية، وتريد أن تكون لها المكانة السامية بكثرة علمائها وفقهائها[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٢٣].

١ - صفاته:

كان رقيق المزاح، منطوياً على نفسه، غير مهتم بما لا يعنيه، ومن كلامه في الموضوع: "لا يصلح المرء حتى يترك ما لا يعنيه، ويشتغل بما يعنيه، فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له"، ويقول: " إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير"[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص ٢٩٧].

وهو يضع الكلمة موضع الدواء وبمقداره، كثير الصمت قليل الكلام يقول: "من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهاؤه". وهي سنة أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ إذ يقول لقائده: "إذا وعظتهم فأوجز". ويقول: "إن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً". والنبي عليه الصلاة والسلام "حلو المنطق فصلاً لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم"[النيسابوري، ١٤١٧هـ، ج٣، رقم٤٣٣٣]حديث صحيح الإسناد. أثنى رجل على آخر ومالك ساكت، فقيل له لماذا لا تتكلم؟ قال: متعت بك، كان يقال: نعم الرجل فلان لولا أنه يتكلم كلام سنة في يوم[الجندي، د.ت، ص٨١].

٢ - مكانته:

بالصبر على البلاء تتحول المحن إلى منح، فالمتأمل في تلك المحنة في تاريخ حرية المجتمع الإسلامي، تشبه إلى حدٍّ ما النضال بين السلطات المختلفة، وتمثل الصراع بين الشعب والسلطة الحاكمة، فهي دائماً مشادة بين ذي صفة دينية

ــ علمية أو عملية ــ وبين حاكم يقلقه تصرف أو دعوة لصاحب الصفة الدينية، فيفزع إلى إيذائه إيذاءً يرهب غيره من أمثاله، ويردع العامة من الإصغاء له؛ وذوو الصفة الدينية هم في النظام الاجتماعي لتلك العصور، ممثلو سلطة الشعب. ولقد تبدو هذه المحن، بادي الرأي، لطخات سوداء في صورة الحياة، إذ كانت ضرباً وتعذيباً، وامتهاناً لكرامة رجال ذوي علم وحرمة، وقد يكونون ذوي سن عالية في أكثر الأحيان، لكن الباحث المدقق، المستشف لما وراء المظاهر الفردية والسطحية، يقّدر فيها الجانب الاجتماعي، ويقيس بها تقدم الإنسانية، وكسب الحرية الآدمية، فتبدو هذه المحن لمعاتٍ وضيئة في ظلام حكم فردي قاس؛ فما هي إلا صمود لهذا الحكم، يهز من جبروته، ويحد من قسوته، ويسجل بقاء الشعور بالكرامة الإنسانية، والحرص على أداء الأمانة الاجتماعية، التي حمّلها الله أهل العلم، إذ كانوا بذلك أهل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى: M ! " # $ % & ') (* + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 L[آل عمران:١٨٧]، [الخولي، د.ت، ص٤٠٧].

ولما دخل المهدي المدينة وجَّه لمالك ببغلة له ليركبها ويأتيه، فرد البغلة وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن أركب في مدينة فيها جسد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأتاه ماشيا، وكانت به علة فاتكأ على المغيرة المخزومي وعلى أبي الحسن العلوي وعلي بن أبي طالب المهلبي، وهؤلاء علماء المدينة وأشرافها. فلما بَصُر به المهدي قال: سبحان الله! ترك ركوب البغلة إجلالا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فقيض الله تعالى له هؤلاء الثلاثة فاتكأ عليهم، والله لو دعوتهم أنا إلى هذا ما أجابوني، فقال المغيرة: نحن يا أمير المؤمنين افتخرنا على أهل المدينة لما اتكأ علينا[الراعي،١٩٨١م، ص ص١٥٣-١٥٤].

٣ - حُسن خلقه:

قال زهير بن عباد: ما كنت أقول لمالك رحمك الله إلا قال: وأنت رحمك الله، وإذا قلت له: عافاك الله، قال: وأنت عافاك الله، حسن أدب. وقالوا كان من أحسن الناس خلقاً مع أهله وولده، ويقول في ذلك: مرضاة لربك، ومثراة في مالك، ومنسأة في أجلك. وقال عبدالله بن عبدالحكم: هيأ مالك بن أنس دعوة للطلبة وكنت فيهم، فمضينا معه إلى داره، فلما دخلنا الدار قال: هذا المستراح وهذا الماء، ثم دخلنا البيت فلم يدخل معنا، ودخل بعد ذلك، فلما خرج الناس سألته عما رأيت، فقال: أما إعلامي لكم بالمستراح والماء، فإنما دعوتكم لأبرَّكم، ولعل أحدكم يصيبه بول أو غيره فلا يدري أين يذهب فيصل إليه الضرر، وأما تركي الدخول معكم في البيت، فلعلي أقول: ها هنا أبا فلان فاجلس، وها هنا أبا فلان اجلس، وقد أنسى بعضكم فيظن ذلك بُغضاً فيه، فتركتكم حتى أخذتم مجالسكم ودخلت عليكم[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص ص١١٢-١١٣].

ومن تواضعه ــ رحمه الله ــ أن رجلا هم بالمرور بين يديه وهو في الصلاة لبعده من سترته، فقال له الرجل: ادن من سترتك، فدنا مالك، وتلا: Mوَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا L[النساء:١١٣] [الراعي،١٩٨١م، ص١٨٤].

٤ - هيبته:

قال زياد بن يونس: ما رأيت قط عالماً ولا عابداً ولا شاطراً ولا والياً أهيب من الإمام مالك ــ رحمه الله تعالى ــ، وقال ابن الماجشون: دخلت على أمير المؤمنين المهدي فما بيني وبينه إلا خادمه، فما هبته هيبتي مالكاً. وقيل: كان الثوري في مجلسه، فلما رأى إجلال الناس له، وإجلاله للعلم أنشد:

يأبى الجواب فلا يُراجع هيبة ... فالسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار وعز سلطان التُّقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص ص١٨٠-١٨١].

كان لمالك صفة تجمع ما وهبه الله من صفات، تلك هي المهابة. فقد هابه تلاميذه حتى إنه ليدخل الرجل إلى مجلسه فيلقي السلام عليهم فلا يرد أحد إلا همهمة وإشارة، ثم يشيرون إليه ألا يتكلم مهابة وإجلالاً، فيستنكر عليهم أن يكونوا كذلك، لكنه ما إن يملأ العين في مالك وسمته، ويقع تحت تأثير نظراته حتى يأخذه ما أخذهم ويجلس معهم كأن على رأسه الطير، ويهابه الحكام، حتى إنهم ليحسون بالصغر في حضرته، كما يهابه أولادهم[خليفة،١٤١٣هـ، ص٧١-٧٢].

قال الشافعي ــ رحمه الله ــ: دخلت إلى والي مكة، وأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى الإمام مالك بن أنس، فقدمت المدينة، فأبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما قرأه، قال: يا فتى، إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً أهون من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه، فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر، فقال: هيهات، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. فواعدته العصر، وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال، أصابنا من تراب العقيق، فتقدم رجل، فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب، فدخلت، فأبطأت، ثم خرجت، فقالت: إن مولاي يقرئك السلام، ويقول إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة، يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف، قال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، فدخلت: وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل، فجلس وهو متطلس، فرفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى "إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه، وتفعل، وتصنع" فرمى بالكتاب من يده، ثم قال: سبحان الله، أو صار علم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يؤخذ بالوسائل، فرأيت الوالي قد تهيب أن يكلمه، فتقدمت إليه، وقلت: أصلحك الله إني رجل مطَّلبي، ومن حالي وقصتي كذا وكذا، فلما سمع كلامي نظر

إليَّ ساعة، وكان لمالك فراسة، فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد، فقال لي: يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص٩٠].

٥ - عفوه وحلمه:

بعد محنة الإمام مالك من قبل والي المدينة ــ جعفر بن سليمان ــ والتي سبق الحديث عنها، قام أبو جعفر المنصور بالاعتذار للإمام مالك عند لقائه به في منى، وأخبره أنه أمر بحبسه والاستبلاغ في امتهانه، وقال: لا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه. فقال الإمام مالك: عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه. ونزهته من أمري، وقلت له: قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقرابته منك. فقال لي: فأنت، فعفا الله عنك ووصلك[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٧٤].

٦ - بُعد رؤيته:

قال أبو جعفر للإمام مالك: إني عزمت أن أكتب كتبك هذه نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين نسخة وآمرهم بأن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها من هذا العلم المحدث، فإنني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. فقال له: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وغيرهم، وإنَّ ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢١٧].

٧ - اختلاف أجناس وطبقات تلاميذه:

وليس من الميسور إحصاء من غشي الحلقة من طلاب الفقه أو من عداهم على مدار أعوام سبعين. وفي أجيال ثلاثة متعاقبة، والحلقة قائمة مستمرة، فإذا كانت في المسجد فهي جامعة أو كصلاة جامعة، وإذا كانت في الدار فهي زحام يحتاج لآذان وسودان يقيمون من يقام[الجندي، د.ت، ص٩٢].

والناس في حلقة الإمام مالك أجناس، فيهم الفرس والمصريون والترك والعرب والأفارقة والآسيويون وأهل أوربا من الأندلس، ومنهم الخلفاء من نسل المنصور: المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون، ومنهم الولاة الكبار وأمراء المدينة الذين كانوا له تبعاً، ومنهم أئمة الإسلام يتوافدون إماماً بعد إمام؛ ليستوثقوا من علمهم، يتصدرهم أبو حنيفة والأوزاعي والحمادان: ابن زيد وابن سلمة، والصاحبان: محمد وأبو يوسف، والسفيانان: الثوري وابن عيينة، والليث بن سعد إمام مصر، وابن مهدي إمام العراق، وعشرات من تلاميذ هؤلاء، ومئات من الآخرين أو آلاف[الجندي، د.ت، ص٩٢].

٨ - علاقته بتلاميذه وشيوخه وأهله وأفراد مجتمعه:

فيما يخص العلاقة بالناس، يرى الإمام مالك أن يترفع أصحاب المروءة متى أمكنهم، عن الاختلاط بالناس، بل وأن يترفعوا ــ متى قدروا ــ عن مباشرة أعمالهم اليومية. ومن كلماته في هذا الموضوع قوله: "ينبغي للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه، وإن كان يقع عليه في ذلك نقص في ماله، فإن العامة لا يعرفون قدره". ومن هنا نادى بأنه: "حق على طالب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة"، وبأن "من علم أن قوله من عمله قل كلامه"[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص ٢٩٩].

وقال الفَرْوِي: كان مالك إذا جلس معنا كأنه واحد منا، ينبسط معنا في الحديث، وهو أشد تواضعاً منا له، فإذا أخذ في الحديث تهيبنا كلامه كأنه ما عرفنا ولا عرفناه[القاضي عياض،١٤٣٠هـ ، ص١٧٣].

ومالك من أكثر الناس إنصافاً للناس، يقول عن الإنصاف: "لم أجد في الناس أقل منه فأردت المداومة عليه". ولما سئل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أيُّ المسلمين أفضل؟ قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده..."حديث حسن صحيح[الترمذي، د.ت، الرقم:٢٦٢٧]. والإمام مالك يقول: "ينبغي للمرء ألا يتكلم إلا فيما أحاط به خبراً"، ويقول: "لا يصلح أمر الرجل حتى يترك مالا يعنيه ويشتغل بما يعنيه فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له". وهو من أشد الناس مداراة للناس يعمل بقوله عليه الصلاة والسلام: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"حديث صحيح [الترمذي، د.ت، الرقم:٢٣١٧][الجندي، د.ت، ص٧٩].

وقال مصعب: كان مالك يقود شيخه ــ نافعاً ــ من منزله إلى المسجد، وكان قد كف بصره، فيسأله فيحدثه، وكان منزل نافع بناحية البقيع[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١١٥].

وأول ما بان من فقه مالك أن رجلاً أوصى عند وفاته أنه قد زوج ابنتيه من ابني أخيه، وقد أخذ مهورهما، ومات الرجل، فأحضر الوالي ــ وكان الحسن بن يزيد ــ الناس، وفيهم ابن أبي ذئب، وابن عمران، وابن أبي سبرة، ومالك وهو حدث وذكر المسألة لهم، فقال جميعهم: ذلك جائز، ومالك ساكت. فقال: ما ترى يا مالك؟ قال: لا يجوز ذلك، فغضب الجميع، وقال ابن أبي ذئب: لا يشاء أن يرد علينا إلا رد. فقال الوالي: أصاب وأخطأتم، ثم قال: من أين قلت يا أبا عبدالله هذا؟ قال: أرأيتم إن أهديتا جميعاً إلى زوجيهما، فتعلق كل واحد منهما بهودج واحدة. كل واحد يقول: هي زوجتي دون الأخرى، لمن تقضون بها؟ فسكت القوم، وقالوا: أصاب. قال الوالي: فما ترى يا أبا عبدالله. قال النكاح مفسوخ حتى تسمى كل امرأة لرجل معين[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٢٥].

وقال مطروح بن شاكر: جلس ابن شهاب، وربيعة، ومالك، فألقى ابن شهاب مسألة فأجاب فيها ربيعة، وصمت مالك، فقال له ابن شهاب: لم لا تجيب قال: قد أجاب فيها الأستاذ، أو نحوه، فقال ابن شهاب: ما نفترق حتى تجيب، فأجاب بخلاف جواب ربيعة، فقال ابن شهاب: ارجعوا بنا إلى قول مالك[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٤٣].

وقال عبدالله العباسي: كان أهل المدينة إذا مات لهم ميت يقولون: امضوا بنا إلى مالك يعزينا[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٨٣].

وأخرج الخطيب عن سعيد بن الجهم قال: كان الإمام مالك إذا صلى الصبح جلس في مجلسه، لا يتكلم ولا يكلمه أحد حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت انتقل إلى حلقته، فقال: السلام عليكم، ثم يقبل على طليب ــ يعني صاحب له ــ وهو عن يمينه، فيقول: كيف أصبح أبو خالد؟، فيقول: بخير أصلحك الله، فكان هذا شأنه في كل يوم[السيوطي،١٤٣١هـ ، ص٣٦].

وقال مصعب: رأيت مالكًا على ضجاع لا يقعد معه أحد، وقريش قعود فإذا جاءه رجل من بني هاشم، ثنى رجله وأجلسه على ضجاعه، فيقبل عليه ولا يلتفت إلى أحد حتى يفرغ. قال التستري: وهذا في غير مجلس العلم[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٨٣].

وقال الشافعي: رأيت بباب مالك كراعاً من أفراس خراسان، ويقال: مصر، فقلت له: ما أحسنها! فقال: هي هبة مني إليك، فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال: إني أستحيي من الله أن أطأ تربة نبي الله بحافر دابة[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٩٩].

وقال ابن نافع: قال مالك: "كل شيء ينفع فضله إلا الكلام". وقال مطرف: وكان مالك إذا ودَّعَه أحد من طلبة العلم عنده، يقول لهم: "اتقوا الله في هذا العلم، ولا تنزلوا به دار مضيعة، وبثوه ولا تكتموه"[القاضي عياض،١٤٣٠، ص٢١٠].

والصلة الروحية الحميمة التي كانت تربط الإمام مالكاً بتلامذته ومريديه. حكى الطحاوي أن ابن فروخ قدم المدينة فلبس ثيابه فأتى قبر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسلم عليه، ثم أتى مالكاً فلما رآه تلقاه بالسلام، وقام إليه، وكان لا يكاد يفعل ذلك بكثير من الناس، ثم أفسح له في المجلس والتفت إلى أصحابه وقال: هذا فقيه المغرب. وفي موقف آخر أتى سائل من المغرب بمسائل، فطلب مالك من ابن فروخ أن يجيب عليه، قائلاً: أَجِبْهُم يا أبا محمد، فإنهم أهل بلدك، فقال له ابن فروخ: بحضرتك؟ قال: نعم، عزمت عليك[الباجي،٢٠٠٤م، ص١٠].

واشتهر مالك أنه كان يُجِلُّ ابن غانم من فقهاء القيروان، وإذا جاءه أقعده إلى جنبه وسأله عن أخبار المغرب وتباسَطَ معه لدرجة أن أصحاب مالك الآخرين كانوا يغارون من ذلك، ويقولون: شغله المغربيُّ عنا، ولما بلغه توليه القضاء سُرَّ لذلك، ويقال: إن مالكاً عرض عليه أن يزوجه ابنته على أن يقيم معه فامتنع من ذلك، وقال له: إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها. ولاشك أن مثل هذه الصلة الروحية الطيبة والحنو والحب الذي كان يُسْبِغه الإمام مالك على تلامذته كان له أثر كبير في كثرة أولئك التلاميذ وتعلقهم به في نفس الوقت[الباجي،٢٠٠٤م، ص١١].

وأما محمد بن مالك فقد كان يحضر مجلس أبيه، وعليه باشق ونعل كيساني، وقد أرخى سراويله عليه، فيلتفت مالك إلى أصحابه ويقول: إنما الأدب أدب الله، وهذا ابني، وهذه بنتي[الدقر،١٤١٩هـ، ص ص ٢٩-٣٠].

ويروى معزواً إلى مالك، فيقال: إنه ذكر يوماً أشياء، فقالوا له: من حدثك بهذا؟ فقال: إنا لم نجالس السفهاء. ولو أن الإمام أحمد بن حنبل يريد ليعد هذه خصوصيةً للإمام مالك، فيقول: قال مالك: ما جالست سفيهاً قط؛ وهذا أمر لم يسلم منه غيره، وليس في فضائل العلم أجل من هذا[الخولي، د.ت، ص٥٦٨].

وكان يحرجه أن يرفض استقبال أحد، وله أصدقاء كُثر، واستخلص العبرة من كل حياته الماضية وأفضى بنصيحة إلى أحد تلاميذه ليبثها في الناس من بعده،

فقال: "إياكم ورق الأحرار". فسأله تلميذه: "ومارق الأحرار؟" قال الإمام مالك: "كثرة الإخوان؛ فإن كنت قاضيا ظلمت أو اتهمت بالظلم، وإن كنت عالما ضاع وقتك". وكان مالك يشكو كثرة الأصدقاء، إذ لا حيلة له معهم، فلا هو يستطيع أن يردهم عنه، ولا هم يتركونه يعمل أو يعتكف في داره للعلم كما ينبغي له[دار المستقبل، ٢٠٠٢م، ص٤١].

٩ - علاقته بالخلفاء:

لقد كان بعض الناس يستكثر قبول الإمام مالك للهدايا، أو يستكثر بعض هذه الهدايا، فقد أجازه الرشيد بثلاثة آلاف دينار فقيل له: يا أبا عبدالله، ثلاثة آلاف دينار تأخذها من أمير المؤمنين. فقال: لو كان إمام عدل فأنصف أهل المروءة، لم أر به بأسا. فهو كان يقبلها؛ لأنها من إنصاف أهل المروءة، وحفظ مروءتهم من يتدلوا إلى ما لا يليق بأمثالهم. وكان يقبلها على مضض ليحفظ مروءته ويدفع حاجته، وما كانت توجبه عليه مكانته الاجتماعية من إيواء لفقراء طلبة العلم وسد حاجة المحتاجين؛ فهو يقبل الهدايا بهذه النية وكان ينهى غيره عن قبولها خشية ألا يكون له مثل نيته. ولقد سئل كثيراً عن هدايا السلطان فكان يقول لسائله: لا تأخذها، فيقول له: أنت تقبلها فيقول: أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك؟[خليفة،١٤١٣هـ، ص٣٦].

قال مصعب: لما قدم المهدي المدينة، استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال، فلما بصر بمالك، انجذب المهدي إليه، فعانقه وسلم عليه وسايره، فالتفت مالك إلى المهدي فقال: يا أمير المؤمنين! إنك تدخل الآن بالمدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلم عليهم، فإن ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ولا خير من المدينة[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٤٧].

١٠ - عنايته بمجتمعه:

قال محمد بن مسلمة: دخل مالك على المهدي فقال له: أوصـــني. فقـــال: أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجيرانه، فأخرج المهدي عطاء كثيراً وطاف بنفسه على دور المدينة، فلما أراد الخروج، دخل عليه مالك، فقال له: يا مالك، أما إني متحفظ بوصيتك التي حدثتني بها ولئن سلمت لا غفلت عنهم. وقال الزبيري: سمعت مالكا يقول: لما قدم هارون كنت ممن لقيته، فقلت: يا أمير المؤمنين! إن لأهل المدينة حقاً فاستوص بهم خيراً، فقال: وما حقهم؟ فقلت: هل تعلم أنه يعرف على وجه الأرض قبر نبي غير نبيـــك محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ؟ قال: لا، قلت: فلو أن أهل المدينة خرجوا عنها، وجب عليك أن تجيء بمن يسكنها ويجاور قبره، وتجري عليه الرزق، فقال لـــي: لو لم أملك من الدنيا إلا ردائي لواسيتهم به[القاضـــي عيـــاض،١٤٣٠هـــــ، ص ص٢٥٥-٢٥٦].

وعظ مالك مرة أبا جعفر المنصور في افتقاد الرعية، فقال لـــه: ألـــيس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فيحرك لئلا يسمع الجيران بكاءها؟ فقال مالك: والله ما علم بهذا إلا الله. فقال له فعلمتُ هذا، ولا أعلم أحـــوال رعيتـــي؟[القاضي عياض، ١٤٣٠هـــ، ص١٠٩].

١١ - مساعدته للمحتاجين:

إن قبول مالك لهدايا السلطان يفيد أنه ما كان ليقبلها إلا لإنصاف أهل المروءة، وحفظ مروءتهم من أن يتدلوا إلى ما لا يليق بأمثالهم. وقد كان يسد بها حاجة المحتاجين، وينفقها على طلاب العلم الذين يلوذون به، فقد كانت طائفة من تلاميذه تأوي إلى كنفه وتعيش في ظله، ومنهم الشافعي ــ رحمه الله ــ فقد عاش في كنفه نحو تسع سنين. وكان بعض الصحابة ــ رضي الله تعالى

عنهم ــ من قبله يأخذون من الخلفاء حتى كان بعضهم إذا سئل عن أخذها يقول:"عليهم المأثم ولنا المطعم"[أبو زهرة، د.ت، ص٣٨٦].

١٢ - من أقواله:

قال زيد بن الحسن: سمعت مالكا يقول: التواضع في التقى والدين وليس في اللباس. وقال ابن المبارك: سمعته يقول: لا يصلح الرجل حتى يترك ما لا يعنيه، ويشتغل بما يعنيه، فإذا كان كذلك، يوشك أن يفتح الله له قلبه. وقال خالد بن حميد: سمعته يقول: عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك لحال الآخرة فعله، وإياك ومجالسة من يعللك قوله، ويعيبك دينه، ويدعوك إلى الدنيا فعلـــه[القاضـــي عياض،١٤٣٠هـــ، ص ص٢٠٩،٢٠٥].

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: كثرة الكلام تمج العالم، وتذله، وتنقصه. قال: وذكر الكلام ومراجعة الناس، فقال: من صنع هذا ذهب بهاؤه. وكان يكره كثرة الكلام ويعيبه، ويقول: لا يوجد إلا في النساء والضعفاء[القاضي عياض، ١٤٣٠، ص٢١٢].

المبحث الثالث: معالم الفكر السياسي عند الإمام مالك

قد كانت مسائل الخلافة تشغل العصر الذي عاش فيه مالك، فقد فتح عينيه في الدنيا، فبلغته أخبار ما كان بين عبدالملك بن مروان، وعبدالله بن الزبير من دماء، وكيف آل الملك أول الأمر، إلى ابن مروان بعد أن خضبت البلاد الإسلامية بدماء المسلمين، ورأى خروج الخوارج، وعرف الكثير من آرائهم، ورأى خروج بني علي من فاطمة رضي الله عنهم أجمعين، ورأى الدولة العباسية وهي تنتزع الملك من الأمويين، ثم رأى العباسيين، وهم ينازعون في الملك بني عمهم العلويين، وهم جميعاً آل بيت واحد. وصلت إلى مالك أخبار هؤلاء. وشهد المدينة تقع تحت سلطان الخوارج مرة، وتحت سلطان محمد بن عبدالله بن حسن (النفس الزكية) مرة أخرى، واتُّهم في الثانية بأنه أفتى بجواز الخروج، وتحلَّة أيمان المبايعين[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص ص١٥٧-١٥٨].

وإذا كان مالك يتأثر طريق السلف الصالح دائماً، وللسلف منهاج بيِّن في هذا الأمر الذي كان يجري فيه التنازع، فلابد أن يكون قد تناول ذلك المنهاج بالدراسة على طريقته، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على ألا يثير فتنة أو يخوض فيها، ويظهر أن إعلان قوله، وله تلك المنزلة الدينية في قاصي البلاد الإسلامية ودانيها كان يخشى منه التحريض على الفتنة، وأن يأخذ منه دعاتها ذرعة لبثها بين الناس، وهو كان يرى أن الفتنة كيفما كان باعثها، شر من الحكم الباطل كيفما كان القائم به، ولذلك لم تؤثر عنه أقوال كثيرة في الإمامة يستبين منها رأيه بوضوح وجلاء، وكان المأثور قليلاً يشير ولا يصرح[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٥٨].

١ - مواقفه السياسية:

كان الإمام مالك يتدخل في أهم قضايا عصره السياسية، سواء منها ما يتصل بالحكم وأساليبه، والبيعة والخلافة أو ما يتصل بتنفيذ الأحكام وتطبيق الحدود، فعندما ثار محمد بن عبدالله (النفس الزكية) الشبه على نظام المنصور العباسي، كان مالك من بين الدعاة لهذه الثورة والخروج، وإن لم يتجاوز موقفه طور الدعوة إلى طور الإنجاز، إذ حين نشبت الثورة عمليا التزم مالك بيته. وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نبرئ ساحة مالك من تأييده حكام الأندلس الأمويين كلما تعرض لإنقاذ أعمال العباسيين، وفي هذا الصدد نورد كلماته التي فاه بها لما أبلغ سيرة عبدالرحمن الداخل (صقر قريش) من أنه يأكل الشعير، ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، قال مالك: "ليت أن الله يزين حرمنا بمثله"[التواتي، ١٤٠٠هـ، ج٢، ص ص٣٢٢-٣٢٣].

وروى الطبري أن أبا جعفر المنصور انتدب مالكا سنة ١٤٤هـ ليقوم بإقناع آل الحسن بن علي بتسليم محمد (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم إلى أبي جعفر، وأرسل بصحبته قاضي المدينة محمد بن عمران[الطبري، د.ت، ج٧، ص٥٣٩].

مما سبق ينشأ هنا سؤال: كيف قبل مالك أن يتوسط تلك الوساطة السياسية لتسليم محمد وإبراهيم إلى أبي جعفر، ومصيرهما لو سلما إليه غير مأمون؟ والجواب ربما وعد أبو جعفر مالكا أنه سيعفو عنهما لو سلما إليه أو مثلا بين يديه، فأغرى ذلك مالكا فقام بتلك المهمة، لا سيما وأنه كان يتشوف إلى إخراج محمد وإبراهيم من الضيق الذي فرض عليهما والخوف الذي ألبساه من قبل أبي العباس السفاح، ثم جعفر المنصور. ولعل قبول مالك التوسط بين أبي جعفر

وأعدائه السياسيين رشحه في نظر أبي جعفر لمنصب سياسي مهم ليس أحد في نظر أبي جعفر أقدر عليه وأصلح إليه من مالك، وهو منصب عام جوهره الرقابة العامة والمحاسبة النافذة في ناحية الحجاز كلها[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص٧٧٩].

٢ - إخلاصه:

ويمكن القول أن الإمام مالكاً يتجنب استغلال الخلفاء بالرغم مما وصلت درجته عندهم فلم يستغلهم من أجل أن ينصر آراءه أو ينتقم من عالم يعارضه، ولهذا لم يستغل طلب الخليفة أبي جعفر عندما أراد أن يجعل كتابه "الموطأ" مرجعا للحكم عند الناس بطريق الإلزام، بل رفض ولم يقبل نهائيا[الإدغيري، ١٤٠٠هـ، ص٣٢٠].

قال الإمام مالك: "لما حج أبو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعت ــ يعني الموطأ ــ فتنسخ نسخا ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما جاء فيها ولا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث. فإني رأيت أصل العلم رواية، رواية أهل المدينة وعلتهم. فقلت: يا أمير المؤمنين: لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به اختلاف أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وغيرهم، وأن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل بلد لأنفسهم، فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به". وهذا الموقف الذي وقفه الإمام مهم جدا لأنه أبان عن سريرته النقية وسياسته الرشيدة وضميره الحي وعلو همته وترفعه عما يتسابق إليه الناس من

حب استغلال نفوذ ذوي السلطة في المصلحة الخاصة العلمية وغيرها[الإدغيري، ١٤٠٠هـ، ص٣٢٠].

٣- بُعد رؤيته:

يبدو أن انتشار مذهب الإمام مالك وبقاءه يرجع إلى أن صاحبه لم يحاول إلزام الناس به عن طريق السلطة الحاكمة، فلو أنه طاوع أبا جعفر وألزم الناس بكتابه الموطأ فربما جاء خليفة آخر بعده وقضى على الفكرة إذا رأى كثرة المعارضين تقربا إليهم وتزلفا، كما وقع مثلا للمعتزلة الذين كانوا يريدون أن يكون الاعتزال المذهب الرسمي للدولة، ولما احتضنته الدولة بالفعل استغلوها، وأباحوا دماء المعارضين وملؤوا السجون بهم، وما إن مات المأمون والمعتصم اللذان كانا يناصرانهم حتى انقلبت الدائرة عليهم ــ حيث جاء المتوكل وأبطل مذهب الاعتزال واضطهد علماءه[الإدغيري،١٤٠٠هـ، ص ص ٣٢٠-٣٢١].

٤- منهجه الإصلاحي عن طريق المشاركة السياسية:

وبعد محنة الإمام مالك من قبل والي المدينة ــ جعفر بن سليمان ــ والتي سبق الحديث عنها، قام أبو جعفر المنصور بالاعتذار للإمام مالك عند لقاء الإمام مالك به في منى، ويمكن القول: إن تلك المقابلة صنعت مدخلا لأبي جعفر إلى نفس مالك، فقد تضمنت الاعتذار من الخليفة لمالك للإهانة التي ألحقها به جعفر بن سليمان عند تسلمه ولاية المدينة سنة ١٤٦هـ، وتضمنت الاعتراف بفضل مالك وعظيم قدره والثناء عليه لسيرته السياسية بعد محنته، ولعل أبا جعفر أيقن أن الإمام مالكا ناصح أمين، غير متطلع لشق عصى الطاعة ومعارضة الجماعة، عازف عن التكلم في السياسة، قدير على أداء ما يعهد إليه، لذلك عزم على منحه

سلطة عامة رقابية ومحاسبية يخضع لها الناس جميعا في الحجاز بما فيهم الولاة والقضاة؛ فقال له: إن رابك ريب في عامل المدنية أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء سيرة في الرعية فاكتب إليَّ بذلك، أنزل بهم ما يستحقون، وقد كتبت إلى عمالي بهذا، وأنت حقيق أن تطاع ويسمع منك[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص ص٧٨٠-٧٨١].

ولقد قبل مالك ذلك المنصب السياسي العام والعالي الذي استحدثه له أبو جعفر، فتربع مالك على قمة هرم الإدارة والحكم في الحجاز كلها، وأصبح نائبا أول للخليفة في شؤون الرقابة العامة والمحاسبة السياسية في تلك الولاية. وإن قبول مالك لتلك الولاية ليدل على استقرار منهجه لديه، وهو منهج الإصلاح عن طريق المشاركة السياسية، وعلى دوام هجره منهج العداء أو البعد عن السلطة السياسية سبيلا، لكن مما تجدر الإشارة إليه هنا أن المشاركة السياسية التي قبلها مالك كانت مشفوعة بتمكنه من تحقيق الإصلاح الذي كان ينشده[العوضي، ١٤٢٢هـ، ص٧٨١].

يقول العوضي: كذلك مما يمكن أن أفسر به عدم تردد مالك في قبول المشاركة السياسية هو خصال الخير التي ألفاها في أبي جعفر، ومنها : خصلة العلم... ولعل خصال الخير في أبي جعفر حرضت مالكا على قبول المشاركة السياسية، كما حرضه على ذلك خوفه من أن يحتكر الفساق وأهل الفساد الوظائف العامة والعليا في الدولة، فيتأصل الظلم ويتجذر الفساد، واطمئنانه إلى أن صلاحياته في تحقيق الإصلاح ستكون واسعة[١٤٢٢هـ، ص ص ٧٨٤-٧٨٥].

٥- المناصب السياسية التي تقلدها:

لم تقتصر مشاركة مالك السياسية على تسلمه منصب الرقابة المحاسبية على الرعية ورجال الحكم والقضاة في الحجاز، فقد تسلم أيضا منصب الإفتاء في المدينة، وأمر أبو جعفر أن ينادى :"ألا يفتي الناس في المدينة إلا مالك بن أنس وابن أبي ذئب"، فاجتمع لمالك منصبان سياسيان هامان ــ يعــد صاحبهما من علية رجال الدولة ومن المتقدمين من أفرادها ــ جهاز الحكم والإدارة فيها، وحظي باحترام عظيم من قبل أبي جعفر، فكان إذا دخل عليه لا يكاد يراه حتى يناديه: "إليَّ هاهنا يا أبا عبدالله، أنت حقيق بكل خير وإكرام"[العوضي، ١٤٢٢هــ، ص ص ٧٨٢-٧٨٣].

٦- نصحه ووعظه للخلفاء:

قال هشام بن عيسى: لما قدم هارون المدينة دعا مالكاً، فقال له مالك: منكم خرج هذا العلم، وأنتم أولى الناس بإعظامه، ومن إعظامكم له ألا تدعو حملته إلى أبوابكم. قال: قد فعلت يا أبا عبدالله[القاضي عياض، ، ص ص ١٦٧-١٦٨].

ولم يأل الإمام مالك ــ رحمه الله ــ جهدا من وعظ الخلفاء ونصحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد أبلغ ــ رحمه الله ــ في نصح الخلفاء ووعظهم فكانت له مع هؤلاء الخلفاء وبالأخص: أبو جعفر المنصور وابنه المهدي وحفيده هارون الرشيد من الخلفاء العباسيين مواعظ حسنة مأثورة يلقيها عليهم عندما يجيئون إلى الحجاز في موسم الحج، فكان يعظهم ويحثهم على مصالح المسلمين وينبههم على ذلك ولم يكن ــ رحمه الله ــ يتحدث معهم في أمور تتعلق بمصلحته أو في نفسه بل كان كل اهتمامه ينصرف إلى العناية بشؤون المسلمين والحرص على خيرهم وكف الشر عنهم[أبانمي، ١٤٠٥هــ، ص٨٣].

ولقد أنكر الإمام مالك على أبي جعفر المنصور رفع صوته في مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد ناظر أبو جعفر المنصور الإمام مالكا في

مسجد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فرفع أبو جعفر صوته فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوما فقال:M p q r s t u v w x ... L[الحجرات:٢]، ومدح قوما فقال:M إِنَّ © يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ... L[الحجرات:٣]، وذم قوما فقال:M إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ L[الحجرات:٤]، وإن حرمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ ميتا كحرمته حيًّا. وهكذا كان موقف العالم من خليفته، فالخليفة وقع في ذلك من رفع صوته في مسجد الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ وربما من غير أن يشعر بذلك لأن أبا جعفر المنصور في حال مناظرة مع مالك، ولأنه كان يعد من العلماء ومحبي العلم، ولكن شيخه مالك لم يتوان في إنكار ذلك على أبي جعفر إجلالا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومسجده، ولكنه إنكار برفق فأعلمه بحكم ذلك وما نزل في ذلك من القرآن الكريم، فما كان من أبي جعفر إلا أن استكان لذلك وأقلع عن فعله[أبانمي، ١٤٠٥هـ، ص٩٢].

وقيل لمالك: تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون؟ فقال: يرحمك الله، وأين المتكلم بالحق؟! وقال مالك: "حق على كل مسلم، أو رجل فعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه، أن يدخل إلى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره، لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك، فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل". وقال عتيق بن يعقوب: كان مالك إذا دخل على الوالي وعظه وحثه على مصالح المسلمين، ولقد دخل يوماً على هارون الرشيد، فحثه على مصالح المسلمين. قال له: "لقد بلغني أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدور، يخرج الدخان من لحيته، وقد رضي الناس منكم بدون هذا"[القاضي عياض،١٤٣٠، ص٢٤١].

وروي أن مالكا كان جالساً مع أبي جعفر، فعطس أبو جعفر فشمته مالك، فلما خرج أنكر عليه الحاجب ذلك وتهدده إن عاد لتشميته، فلما كان بعد ذلك جلس عنده فعطس أبو جعفر، فنظر مالك إلى الحاجب، ثم قال للمنصور: أي حكم تريد يا أمير المؤمنين؟ أحكم الله أو حكم الشيطان؟ قال: لا بل حكم الله. قال: يرحمك الله[القاضي عياض،١٤٣٠، ص٢٤٢].

إن حمل الظالم على العدل بالموعظة الحسنة وتذكيره أوامر الدين واجب، ويقول بذلك الصالح المرشد، ولو تعرض لنقمة الحاكم الظالم، فإن قتل في سبيل الموعظة الحسنة فهو شهيد. فقد قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ذلك: "أفضل الجهاد كلمة عدل (وفي رواية: حق) عند سلطان جائر"[الألباني، ١٤٠٥هـ، رقم:٤٩١]. ولو أن المسلمين أخذوا بنظر الإمام مالك، فقام علماؤهم بواجب النصح والإرشاد، ولم يكن المنافقون المتملقون، ما استمر استبداد، ولا بغى ظالم[أبو زهرة، د.ت، ص٣٩٦].

٧- تأثره بشيوخه:

قال ابن وهب: قال لنا مالك يوماً: دعاني الأمير في الحداثة أن أحضر المجلس، فتأخرت حتى راح ربيعة فأعلمته وقلت: لم أحضر حتى جئت أستشيرك، فقال لي ربيعة: نعم. قال ابن وهب: فقلت له: فلو لم يقل لك احضر لم تحضر؟ قال: لم أحضر، ثم قال: يا أبا محمد! لا خير فيمن يرى نفسه بحال لا يراه الناس له أهلاً[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص١٢٣].

وقال الحارث بن مسكين: كان ابن هرمز قد أوصى مالكاً وعبدالعزيز فقال: إذا أدخلتما على السلطان فكونا من آخر من يتكلم عنده[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٧١].

٨- مكانته:

كان الإمام مالك كالسلطان له حاجب يأذن عليه، فإذا اجتمع الناس ببابه، أمر آذنه فدعاهم، يخص أولاً أصحابه، فإذا فرغ من يخص، أذن للعامة[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٦٢].

وقال مصعب وابن زنبر: استفتى والي المدينة مالكا في مسألة، فأبى أن يجيبه، وقال: كيف أجيبك وقد وليت على المسلمين خيثم بن عراك؟ فعزله وأفتاه[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٥٦].

وقال حفص بن غياث: كان مالك يجلس عند الوالي، فيعرض عليه أهل السجن، فيقول: اقطع هذا، واضرب هذا مائة، وهذا مائتين، واصلب هذا، كأنه أنزل عليه كتاب[القاضي عياض،١٤٣٠، ص٢٠٤].

وقال أبو جعفر المنصور للإمام مالك: إن رابك ريب من عامل المدينة أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إلي بذلك أنزل بهم ما يستحقون، وقد كتبت إلى عمالي بهذا أن يسمعوا منك ويطيعوا في كل ما تعهد إليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك، وأنت حقيق أن تطاع ويسمع منك[القاضي عياض،١٤٣٠، ص٢٤٣].

وقال ابن عبد الحكم: استأذن المهدي على مالك، فحبسه ساعة ثم أذن له، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين! إن العيال سمعوا بمجيئك فأحبوا أن يصلحوا من منزلهم[القاضي عياض،١٤٣٠، ص٢٥١].

ولقد بعث المهدي بولديه موسى وهارون من بغداد عاصمة الخلافة والعلم والثقافة إلى المدينة ليسمعا من الإمام مالك حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولقد طلب الرشيد من مالك أن يحدثه بحديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومالك يؤمن بأن العلم يزار ولا يزور، وأن العلم يؤتى إليه ولا يأتي. فكان على خليفة المسلمين إذا أراد أن يسمع مالكا محدثا أن يذهب إليه في بيته، وقد فعل ذلك امتثالا لسلطان العلم[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٥٠].

ولما قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين بعث إلى مالك فلم يأته فقال له أبو يوسف: يبلغ أهل العراق أنك بعثت إلى مالك فلم يأتك، ابعث إليه من يأتيك به كرهاً؛ فبعث إليه هارون الرشيد مرة ثانية فأتاه مالك، فقال له الرشيد: يا ابن أبي عامر أبعث إليك فتخالفني! فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله جعلك في هذا الموضع لعلمك، فلا تكن أنت أول من يضع العلم فيضعك الله، ولقد رأيت من ليس في حسبك ولا بيتك يُعِزُّ هذا العلمَ ويُجِلُّه، فأنت أحرى أن تُعِزَّ وتُجِلَّ علمَ ابن عمك. ولم يزل يعدد عليه من ذلك حتى بكى هارون، ثم قال أخبرني الزهري، عن خارجة بن زيد قال: قال زيد بن ثابت: كنت أكتب الوحي بين يدي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كتف: M ! " # $ % ... L[النساء:٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال: يا رسول الله، قد أنزل الله في فضل الجهاد ما أنزل، وأنا رجل ضرير، فهل لي من رخصة؟ فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "لا أدري". قال زيد بن ثابت: وقلمي رَطْبٌ ما جف حتى غَشِيَ النبيَّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ الوحيُ، ووقع فَخِذُه على فخذي حتى كادت تُدَقُّ من ثقلِ الوحي، ثم جُلِيَ عنه فقال لي: "اكتب يا زيدُ: M & ') L" [النساء:٩٥]. فيا أمير المؤمنين، حرف واحد بُعِث به جبريل والملائكة ــ عليهم السلام ــ من مسيرة خمسين ألف عام حتى أنزل على نبيه ــ صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي لي أن أَعِزَّه وأُجِلَّه؟[السيوطي، ١٤٢٤هـ، ج٤، ص٦٢٧].

عن عبد اللّه بن الزبير ــ رضي الله عنه ــ قال: حدّثتني خالتي ــ يعني عائشة رضي الله عنها ــ قالت: قال النبيّ ــ صلى الله عليه وسلّم: "يا عائشة! لولا أن قومَك حديثُو عَهْدٍ بِشْرك، لهدمتُ الكعبة فألزقتُها بالأرض، وجعلتُ لها بابين باباً شرقيًّا وباباً غربياً، وزدتُ فيها ستة أذرع من الحِجْر، فإنَّ قريشاً اقتَصرَتْها حيث بنتِ الكعبة"[مسلم، ١٤١٢هـ، ١٣٣٣/٦٩/١٥]. فرُوِيَ في ذلك أن الرشيد ذكر لمالك بنِ أنس أنه يريدُ هدم ما بَنَى الحجاج من الكعبة، وأن يردَّه على بناء ابنِ الزبير لِمَا جاء عن النبيّ ــ صلى الله عليه وسلّم ــ وامتثلَه ابن الزبير، فقال له مالك: ناشدتُك الله يا أمير المؤمنين، ألاّ تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاءُ أحدٌ منهم إلا نقضَ البيتَ وبناه، فتذهبَ هيبتُه من صدور الناس[القرطبي، ١٤٢٧هـ، ج٢، ص٣٩٤].

٩- آراؤه السياسية:

وفي السياسة كان يقر عمل الراشدين ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ وكان يرى أنه لا تجوز الإقامة في بلد لا يقام فيه العدل، ويسب فيه أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويقول في ذلك: "لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير الحق، والسب للسلف"[أبو زهرة، د.ت، ص٣٩٥].

وكان يرى أن ما سلكه الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ في اختيار الخلفاء الراشدين هو الطريقة المثلى، ولذلك أقر نظام الاستخلاف بشرط المبايعة الحرة التي لا إكراه فيها، كما استخلف أبو بكر عمرَ ــ رضي الله عنهما ــ ويقر نظام الشورى بين عدد يعينهم الخليفة السابق، وكان يقر نظام الشورى ابتداء كما فعل الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ مع أبي بكر وعلي ــ رضي الله عنهما[أبو زهرة، د.ت، ص٣٩٥].

وهو في آرائه السياسية ينظر دائماً إلى المصلحة والعدالة، وما يفضي إليهما، فما يفضي إلى الفساد لا يجوز، وما يفضي إلى المصلحة والعدالة يجوز. وليس من المصلحة ولا العدالة إكراه الناس على ما لا يريدون[أبو زهرة، د.ت، ص٣٩٥].

يقول مالك في ذلك: إن مبايعة أهل الحرمين مكة والمدينة كافية لانعقاد البيعة الكاملة التي يستأهل الخليفة أن يكون بها إماماً لعامة المسلمين؛ لأنهم حملة السنة النبوية، فهم أهل الحل والعقد، فقد جاء في المدارك: قال ابن نافع: كان مالك يرى أن أهل الحرمين إذا ما بايعوا لزمت البيعة أهل الإسلام. فهو لا يرى أن بيعة أهل بغداد أو الكوفة أو البصرة أو دمشق، أو الفسطاط، أو بيعتهم مجتمعين تلزم المسلمين ما دام لم يدخل فيها بيعة أهل المدينة ومكة، وإذا بايع أهل مكة والمدينة وحدهم لزمت البيعة الجميع، ووجبت عليهم الطاعة. وإن ذلك الرأي كانت له قيمته ومكانته، يوم أن كان الدخلاء على المسلمين كثيرين في غير مكة والمدينة، فكان الاحتياط يوجب أن تعتبر بيعتهم؛ لأنهم المسلمون الذين ليس فيهم دخيل يريد الإسلام خبالا. أما بعد أن اتسعت رقعة الإسلام، واستقر في القلوب، فيجب أن يكون ثمة نظام للبيعة. ومهما تكن قيمة ذلك الرأي في التاريخ، والاعتماد على السنة، فهو رأي مالك، وهو يتفق مع المأثور عنه من أخبار ومن تقديس لعلم الحجاز، وخصوصاً دار الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٧٠].

إذا تغلب متغلب على المسلمين، ولم يكن في أول أمره قد تولى برضا، ولكن عدل وسكن الناس إلى حكمه، فالمعروف في مذهب مالك أنه لا يصح الخروج عليه وتلزم طاعته؛ لأنه لا مطلب سوى العدل وقد تحقق، واستقر، ورضي الناس وسكتوا، فليس في الخروج إقامة العدل، ولا دفع الظلم. وإن كان غير عادل لم يستجز مالك – رحمه الله – الخروج عليه، وإن لم يدع إلى محاربة الخارجين عليه، فعلى المسلمين أن يصبروا، ويجتهدوا في تقويمه، وإن خرجت

عليه خارجة لا يعاونوه في قمعها، فإنه ظالم، ودعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٧١].

وليس الصبر الذي يدعو إليه الإمام مالك – رحمه الله – هو صبر المستكين الذي لا يستنكر الظلم ويرضاه، بل صبر الذي يريد صلاح الناس، وقد وجد أن الفساد في الخروج، وأن حمل الظالم على العدل بالموعظة والنصح، والإرشاد، وتذكيره أوامر الدين قريب، فإن لم يكن دفع الظلم كله بهذه الطريقة، فتقليله في دائرة الإمكان، وأنه إذ حرض على عدم الخروج، ولم يدع إليه فهو لم يرض عن محاربة الخارجين على ظلمه من المسلمين، لأنه صبر عليه، ولم يناصره في ظلمه، ومعاونته في القضاء على الخارجين مناصرة للظالم في ظلمه، وليس له هذه الطاعة؛ ولأن معاونته في ذلك سفك لدماء المسلمين، فهم وإن أخطؤوا في الخروج على ظلمه لا تحل دماؤهم[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٧٣].

هذه نظرة مالك السياسية، نظرة تجمع إلى المثل الأعلى للحكم، النظر إلى الواقع الذي تستقيم عليه أمور الناس، فيرى أن مصالح الناس الواقعة يجب أن تكون مقدرة في اعتبار الذين يحثون على الطاعة، أو الخلاف، فهو لا ينظر فقط إلى الصورة المثالية، بل ينظر إلى الحقيقة الواقعة، وما عليه حال الأمة، ويعتبر بحوادث التاريخ، وبما شاهد وعاين، فيرى أن السكون خير من الخروج، وأن الابتعاد عن الفتن خير من أن يخب فيها ويضع، وإرشاد من غير خروج قد يحمل الحاكم على الجادة، فيكون الصلاح من غير عبث وفساد، كما كان يفعل هو مع ولاة المدينة والخلفاء[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٧٢].

وبعد، فهذه سيرة الإمام مالك بن أنس مع الخلفاء وذوي السلطة والغرض منها الاستفادة قدر الإمكان من أخلاقه وأخلاقهم، فإلقاء الأضواء على السلف الصالح ضروري لنعرف الكيفية التي كانوا يعالجون بها الأمور الصعبة وبذلك نطلع على حكمتهم وصبرهم ولباقتهم، ولنحاول نحن أن نأخذ بعض أوصافهم

مراعين في ذلك الإسلام والمسلمين كما كانوا هم يفعلون[الإدغيري،١٤٠٠هـ، ص ٣٢٢].

ويرى الباحث أن الإمامَ مالكاً لم يكن يتوانى في تقديم النصح للولاة والخلفاء وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ولم يكن يرى الخروج عليهم، ولم تكن المناصب التي تقلدها الإمام مالك ــ رحمه الله ــ رسمية يتقاضى عليها مالاً، وإنما هي مناصب احتسابية لها علاقة بمكانته الدعوية ومنهجه في التطلع إلى وحدة كلمة الأمة، ويرى الباحث أن المربي يمكن أن يستفيد من منهج الإمام مالك ــ رحمه الله ــ وهمَّته الدعوية التي لم تقف عند حدود حلقة طلابه؛ بل امتدت إلى أبعد من ذلك حتى أصبح له مذهب معروف انتشر في جميع الأقطار الإسلامية.

المبحث الرابع: معالم الفكر الاقتصادي عند الإمام مالك

انقطع مالك لطلب العلم، ومات عائله وشب الفتى وأصبح عليه أن يعول نفسه وزوجته وبنته، وكانت له تجارة بأربعمائة دينار ورثها عن أبيه، ولكنه كان مشغولا عنها بطلب العلم فكسدت تجارته، واضطر إلى أن يبيع خشبا من سقف بيته ليعيش هو وأسرته بثمنه، وكان الجوع يعضه ويعض زوجه وابنته فتصرخ الطفلة من الجوع طيلة ليلها. فيدير أبوها الرحى لئلا يسمع الجيران صراخها، ولما قد بلغ أوج شبابه، وجد نفسه عاجزا عن توفير ما يكفي أهل بيته إلا أن يضحي بطلب العلم، فانفجرت أول صرخات اجتهاده وناشد الحاكمين أن يمكنوا أهل العلم من التفرغ للعلم، وأن يجروا عليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة، غير أن أحدا لم يلتفت إليه، فقد كانت الدولة الأموية التي عاش شبابه في ظلها مشغولة بتثبيت أركانها، وبتألف قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم[دار المستقبل، ٢٠٠٢م، ص ص٢٨-٢٩].

والتقى به في تلك الفترة طالب علم شاب من أهل مصر هو الليث بن سعد، كان قد أَلِف أن يحج ما بين عام وعام ويزور المدينة ويجلس إلى حلقات الفقهاء في الحرم النبوي، وقد أعجب كل واحد منهما بذكاء صاحبه ونشأت بينهما علاقة احترام متبادل، وألقى الله في قلبيهما مودة ورحمة، ولاحظ الليث بن سعد أن صديقه ــ على الرغم من أناقة ثيابه ونظافتها، وعلى الرغم من رائحة المسك والطيب التي تسبقه ــ فقير جهدهُ الفقر، وإن كان ليداري فقره تعففا وإباء! وكان الليث واسع الغنى، فمنح صاحبه مالا كثيرا وأقسم عليه أن يقبله. وعاد الليث إلى وطنه مصر وظل بها يصل صاحبه مالك بن أنس بالهدايا وبالمال، حتى أصلح حال مالك، ووجد من الخلفاء من يستجيب إلى ندائه المتصل أن تجرى الرواتب على أهل العلم[دار المستقبل،٢٠٠٢م، ص٢٩].

- **نظرته للحياة:**

كان الإمام مالك زاهدا فيما في أيدي الناس، عن عقيدة وإيمان، ومن كلماته في الموضوع: "ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة". ولكن الزهد عند الإمام مالك ليس معناه الرفض والترك للعمل، ولكنه العمل قال: "الزهد في الدنيا طيبُ التكسب وقصرُ الأمل"، وهو لذلك يؤمن بمبدأ الاعتماد على النفس، انطلاقاً من رسوبات التجارة المتبقية في أعماقه، ومن أصله اليمني، هذا الشعب الذي عرف بحبه للعمل، والميل إلى الصناعة. ومن كلمات مالك في موضوع الاعتماد على النفس هذه النفحة: "طلب الرزق في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس"[الشاطبي، ١٤١٧هـ، ج٢، ص٢٥٤]. بل عندما سئل عن طلب العلم أفريضة هو؟ قال: "نعم، ولكن يطلب ما ينتفع به". وكان مالك بالإضافة إلى كل ذلك متفتحا في كل شيء، في نظرته إلى الحياة والناس والمجتمع، وفي وعظه وإرشاده، وفي إيمانه بحرية الرأي والعقيدة[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص ٢٩٧].

- **من أقواله:**

قيل للإمام مالك ما تقول في طلب العلم؟ قال: حسن جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه[السيوطي،١٤٣١هـ، ص٣٩].

وقال الإمام مالك:"لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر، ويؤثره على كل حاجة"[السيوطي،١٤٣١هـ، ص٣٥].

وقد قضى الإمام الشافعي عشر سنوات في حلقة شيخه ــ الإمام مالك ــ وعندما افترقا وصاه الإمام مالك قائلا: "لا تسكن الريف فيضيع علمك، واكتسب الدرهم ولا تكن عالة على الناس، واتخذ لك ذا جاه ظهراً لئلا تستخف بك العامة، ولا تدخل على ذي السلطنة إلا وعنده من يعرفك، وإذا جلست عند كبير فليكن

بينك وبينه فسحة لئلا يأتي إليه من هو أقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شيء"[الجندي، د.ت، ص٩٧].

- **فقره وشدة حاجته:**

كان الإمام ــ أول أمره ــ في عسرة شديدة حتى إنه كانت تبكي ابنته من الجوع أحيانا، ومما يروى في ذلك أنه وعظ أبا جعفر المنصور في تفقد أحوال الرعية، فقال له: أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فيحرك لئلا يسمع الجيران؟ فقال مالك: والله ما علم بهذا أحد إلا الله. فقال له: فعلت هذا ولا أعلم أحوال رعيتي؟ وكان سبب هذه العسرة انقطاعه لطلب العلم ، قال تلميذه ابن القاسم: أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ثم مالت عليه الدنيا بعد. فقد لقي مالك ــ رحمه الله تعالى ــ ضيق الرزق وتقتيره، وبسطة العيش وتيسيره وهو في الحالين يحمد الله، ولعله بعد أن علا قدره، وبسط الله له أسباب الرزق، وكثرت جوائز الخلفاء انقطع عن الاتجار والعمل لكسب القوت، فقد منحه الله من فضله ما سهل له الانصراف إلى العلم، والاستغناء عن الاكتساب[خليفة،١٤١٣هـ، ص ص٣٦-٣٧].

قال الحارث بن مسكين: رحم الله مالكا، ما كان أصونه للعلم، وأصبره على الفقر ولزوم المدينة، أمر له بجوائز، ثلاثة آلاف دينار، فما استبدل منزلاً غير المنزل الذي كان فيه، ولا استفاد منه غلة ولا ضيعة ولا تجارة. وقال ابن القاسم: كان لمالك ــ رحمه الله تعالى ــ أربعمائة دينار يتجر له بها، فمنها كان قوام عيشه ومصلحته[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢٠٢].

- **آراؤه الاقتصادية:**

إن مالكاً لا يرى بأساً في أخذ العطاء من الإمام العادل، وهو يرى أن خلفاء بني العباس كذلك ولذلك يأخذ صلاتهم، ثم أنه يحدد أهل المروءة، ويعني بهم الفقهاء، والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، ثم أن العطاء لا يجب أن يكون كبيراً حتى لا يرهق بيت المال، ولا يكون فتنة للفقيه فينسى واجبه وينظر للعطاء بعد ذلك[أحمد،١٤٠٥هـ، ص ص٢٣٦-٢٣٧].

إن للعلماء حقاً في بيت المال، لأنهم حبسوا أنفسهم لخدمة العلم، ولإرشاد الناس، فكان على بيت المال أن يرزقهم ما يكفيهم وأسرهم بالمعروف، ومع أن الإمام مالكاً كان يأخذ هدايا الخلفاء، كان ينهى غيره لأنه يحتسب نية لا يحتسبها غيره، ولأنه يأخذها في مقابل عمل يقوم به لخدمة الإسلام والمسلمين، وغيره قد يقبلها من غير عمل. ولكنه كان لا يتكلم في هذا لأنه لا يميل إلى الجدل، وقد قال لبعض من سأله عن ذلك: "لا تأخذها"، فقال له: "أنت تقبلها"، فقال له: "أتريد أن أبوء بإثمي وإثمك"[أبو زهرة، د.ت، ص٣٨٦].

وهنا كلمتان في الزهد تجلِّيان رأي الإمام مالك فيه، فأولى هاتين الكلمتين؛ قولُه حاضًّا على الزهد: "ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة"، وثاني كلمتيه وهي قوله مبيناً للزهد: "الزهد في الدنيا طيبُ التكسب ــ أو المكسب ــ وقصرُ الأمل". فهو أخذٌ للدنيا باعتدال دون تخلّ ولا اعتزال[الخولي، د.ت، ص ص٣٠٣-٣٠٤].

ويرى الباحث مما سبق في هذا الفصل أن الرؤيا الثاقبة في فكر الإمام مالك السياسي لم تكن وليدة فكرة عابرة أو نظرة سائرة بل كانت رؤية امتدت رحاها سنين طويلة، لذا كان منهجه في التعاطي مع الحوادث والأحوال السياسية رزيناً ثاقباً متئداً، موازناً بين المصالح والمفاسد، آخذاً بمآلات الأحوال والأمور، ناصحاً بحكمة للراعي والرعية، متدثراً بدثار أهل السنة في لزوم الجماعة ونبذ

الفرقة، وبهذا النهج استطاع ــ رحمه الله ــ التأقلم مع كثير من الظروف والتقلبات السياسية المختلفة.

وإن المتأمل في الفكر الديني لدى الإمام مالك ــ رحمه الله ــ يدرك بجلاء علو همته، وجليل مناقبه، ونقاء سريرته، ولعل في هذه الأوصاف منهلا عذبا ومنزلا رحبا لكل عالم فضلا عن طالب، كيف وهو إمام دار الهجرة وهو على خطى أبي القاسم ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الروحة والغدوة.

وإن جمال طالب العلم وحليته هي سمته وورعه، وقامته تعففه وحسن منطقه، وتبرز تلك الجماليات التربوية من خلال علاقته المجتمعية الممتدة لعشرات السنين ينهل منها الحاضر والباد.

ويرى الباحث أن الإمام مالك ــ رحمه الله ــ عاش تقلبات مالية متعددة فتارة كان معسراً وأخرى موسراً وفي كلا الحالتين يعطي أجمل الأمثلة وذلك بدوام الصبر والرضا بما قسم للمرء، وأن يستعين بالله تعالى في تفريج كربه وتيسير أحواله وألا تشغله الدنيا واللهث خلفها عن نور العلم.

الفصل الرابع

الفكر التعليمي عند الإمام مالك بن أنس

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام مالك

المبحث الثاني: معالم الفكر التعليمي عند الإمام مالك

المبحث الثالث: من آراء الإمام مالك التعليمية

المبحث الرابع: الأساليب التعليمية عند الإمام مالك

المبحث الأول: تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام مالك

تطور الفكر التربوي في عصر السيرة:

اهتم الإسلام بتعليم الإنسان منذ بداية الدعوة، فأول آية أنزلت على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحث على القراءة، وهي وسيلة من وسائل التعلم، قال تعالى:M K L M N O L[العلق:١]، والكتابة لا تقل أهمية عن القراءة، فقد ذكرها الله في نفس السورة، قال تعالى:M K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ `a b c L[العلق]، وبينت الآيات القرآنية مكانة العلماء وفضلهم، فقال تعالى:M...يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ à ٱلۡعِلۡمَ â ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ç L[المجادلة:١١]، وقد حثت الأحاديث على طلب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة"[مسلم، ١٤١٢هـ، ٢٦٩٩/١١/٤٨]. وركز الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على العلم النافع، وتعوذ من غيره، فقال: "اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع"[مسلم، ١٤١٢هـ، ٢٧٢٢/١٨/٤٨][القرعان، ١٤١٣هـ ، ص٣٨].

تطور الفكر التربوي في العهد المكي:

كانت أهداف التعليم في هذه المرحلة تتركز على تثبيت العقيدة الإسلامية في النفوس، وهدف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى نشر هذا الدين عن طريق البعثات التعليمية، فأرسل مصعب بن عمير معلماً إلى المدينة المنورة قبل الهجرة بعامين، ليُعلم أهلها القرآن الكريم، وشعائر الدين الجديد.

وكان الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ يكتبون الوحي، وكان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلم أصحابه مبادئ الدين الجديد، واتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً لذلك، فكانت أول مدرسة في تاريخ الإسلام، حيث ربى فيها أصحابه تربية لم تتوفر في تاريخ البشرية، واستخدم في تبليغ هذا الدين وسائل دعوية تربوية عدة منها: الدعوة السرية ثم الجهرية، والفردية ثم الجماعية، والتدرج في الدعوة، والإقناع بالحجة، والاستمرار في الدعوة، والصبر على البلاء، وإشراك جميع الأفراد في الدعوة ــ الأحرار والعبيد والرجال والنساء والشباب والشيوخ ــ كل بقدر استطاعته، فخديجة ــ رضي الله عنها ــ مثلا ثبتت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وآزرته بنفسها ومالها ورأيها السديد.

تطور الفكر التربوي في العهد المدني:

يعد بناء مسجد قباء أول عملٍ قام به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في المدينة المنورة ثم تلاه المسجد النبوي الذي استمر دوره التعليمي إلى يومنا هذا حيث ما زالت الحلقات العلمية تتوالى في أفنيته، فكان مسجده ــ صلى الله عليه وسلم ــ جامعة المسلمين الكبرى، ومركز الدعوة إلى الله.

وفي الجانب الشمالي من المسجد كان هناك مكان لأهل الصَّفة، وهو مأوى الفقراء الذين ينشدون العلم والعبادة وكان الرسول ــ صلى الله علية وسلم ــ يشجعهم على العلم والعبادة بقوله: "أفلا يغدو أحدُكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ــ عزَّ وجلَّ ــ خيرٌ له من ناقتين، وثلاثة خيرُ له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل؟"[مسلم، ١٤١٢هـ،٦/٤١/٨٠٣].

ووجدت مكتبات خاصة مثل مكتبة أبي هريرة التي احتوت على مجموعة كبيرة من أحاديث الرسول ــ صلى الله علية وسلم ــ[القرعان، ١٤١٣هـ ، ص٤٠].

وظهر اهتمام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بتعليم الكتابة في حادثة أسرى بدر عندما أفتدى كُلّ أسير مقابل تعليم عشرة من المسلمين الكتابة والقراءة.

ولأن الرسول ــ صلى اله عليه وسلم ــ كان يعلم أهمية العلم والتعليم في تغيير سلوك القبائل المعتنقة للإسلام، فكان يرسل من يعلمهم، فقد قام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بإيفاد بعض الصحابة إلى المدن والأمصار، فبعث معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ــ رضي الله عنهما ــ إلى اليمن ليعلما أهلها القرآن الكريم، كما كان قد بعث مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ إلى المدينة من قبل ذلك.

وكانت طريقُ التعليم السائد، القراءة والإملاء، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما يقرأ القرآن على صحابته، فيكتب زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ الوحي، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدوره يملي عليه، وبعد فراغه من الكتابة يقرأ زيد ما كتب.

ولم يمنع الحياء المرأة من التعليم، فقد أثنت عائشة ــ رضي الله عنها ــ على نساء الأنصار بقولها:"نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياءُ أن يتفقهن في الدين"[الألباني، ١٤٠٦هـ، ٢٨/٥١/٣].

وكان مقام السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ بين الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ الذين اشتهروا بالفتيا والعلم، مقام الأستاذ من تلاميذه، فكان عمر بن

الخطاب ــ رضي الله عنه ــ يحيل عليها ما يتعلق بأحكام النساء، أو بأحوال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في بيته[الحمد، ١٤٢٣هـ، ص٢٦٨].

تطور الفكر التربوي في عصر الراشدين:

اهتم الخلفاء الراشدين بالتعليم، ففي خلافة أبي بكر الصدّيق ــ رضي الله عنه ــ قام زيدٌ بن ثابت بجمع القرآن الكريم، بناءً على طلب أبي بكر، وكتبه في صحف وعرضه على سعد بن العاص.

وقام عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ بجمع الناس على حرفٍ واحد في القراءة، وجَعلَ السور الطويلة مع الطويلة والقصيرة معاً، ووزع نسخاً إلى الأمصار الإسلامية.

وظهرت المكاتب نتيجة للفتوحات الإسلامية وكثرة أبناء المسلمين، فأمر عمر بإنشاء الكتاتيب ووضع عليها معلمين لتعليم الصبيان.

تطور الفكر التربوي في العصر الأموي:

اهتمام خلفاء بني أمية بالعلم، فظهر الاهتمام بأخبار الماضين وتدوينها، ثم اتجه بعضهم اتجاها أدبيا وعلميا كعبدالملك بن مروان.

وأحب عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ العلم، فاهتم بالمنهاج التربوي ليتخذ اتجاهاً آخر إضافة إلى ما كان عليه، فاهتم بالحديث النبوي الشريف، وأمر بتدوينه تدويناً رسمياً وكلف ابن شهاب الزهري ــ أحد شيوخ الإمام مالك ــ بذلك.

وبُنيت في هذا العصر عدة مؤسسات تعليمية ونشر العلم من خلالها، فشيدت المساجد ومن أشهرها: المسجد الجامع في القيروان الذي بناه عقبة بن نافع عند فتحه لأفريقية، سنة(٥٠هـ)، وكذلك جامع دمشق الذي شيده الوليد بن عبد الملك سنة(٨٨هـ). وعقدت فيه مجالس علمية.

وتم بناء جامع الزيتونة في تونس، وقام ببنائه عبدالله بن الحبحاب سنة(١١٤هـ)، وقد تلقى المسلمون فيه دروساً في تفسير القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والمعلمون فيه من كبار التابعين، ومن الذين تلقوا العلم على كبار الصحابة والمحدثين الأوائل.

المبحث الثاني: معالم الفكر التعليمي عند الإمام مالك

أهمية المعلم في العملية التعليمية:

المعلم هو عامل أساسي في نجاح العملية التعليمية، وأنه من أهم عناصر التعليم، ولا يستطيع المتعلم بلوغ مراده وتحقيق أهدافه إلا إذا أحسن اختيار معلميه، فلقد عني مالك باختيار المعلم، وتحديد عناصر كفاءته.

ولم يعد الآن لدى التربويين أدنى شك في أهمية الدور الذي يقوم به المعلم، ولقد أثبتت التجارب أنه مهما استحدث في التعليم من طرق ووسائل، ومهما أضيف إليه من موضوعات جديدة، ومناهج متطورة، ورصدت له الأموال، وأقيمت له أفخم المباني، وزود بأحدث الأجهزة والوسائل التعليمية، فإن كل ذلك لا يمكن أن يحقق نفسه، ولا نستطيع أن نترجمه إلى مواقف موضوعية وعلاقات تربوية، وخصائص سلوكية إلا عن طريق المعلم[عبدالعال،١٤٠٩هـ، ص ص٢٨٠-٢٨١].

علاقة المعلم بتلاميذه:

من العوامل التي ساهمت في كثرة تلامذة مالك وأتباعه الصلة الروحية الحميمة التي كانت تربط الإمام مالكاً بتلامذته ومريديه. حكى الطحاوي أن ابن فروخ قدم المدينة فلبس ثيابه فأتى قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم أتى مالكاً فلما رآه تلقاه بالسلام، وقام إليه، وكان لا يكاد يفعل ذلك بكثير من الناس، ثم أفسح له في المجلس، والتفت إلى أصحابه، وقال: هذا فقيه المغرب[الباجي، ٢٠٠٤م، ص١٠].

وفي موقف آخر أتى سائل من المغرب بمسائل، فطلب مالك من ابن فروخ أن يجيب عليه، قائلاً: أجِبْهُم يا أبا محمد، فإنهم أهل بلدك، فقال له ابن فروخ: بحضرتك؟ قال: نعم، عزمت عليك[الباجي، ٢٠٠٤م، ص١٠].

واشتهر مالك أنه كان يُجِلُّ ابنَ غانم من فقهاء القيروان، وإذا جاءه أقعده إلى جنبه وسأله عن أخبار المغرب وتباسَطَ معه لدرجة أن أصحاب مالك الآخرين كانوا يغارون من ذلك، ويقولون: شغله المغربيُّ عنا، ولما بلغه توليه القضاء سُرَّ لذلك، ويقال: إن مالكاً عَرَضَ عليه أن يزوجه ابنته على أن يقيم معه فامتنع من ذلك، وقال له: إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها. ولا شك أن مثل هذه الصلة الروحية الطيبة والحنو والحب الذي كان يُسْبِغه الإمام مالك على تلامذته كان له أثر كبير في كثرة أولئك التلاميذ وتعلقهم به في نفس الوقت[الباجي، ٢٠٠٤م، ص١١].

وكان الإمام مالك يعجبه سمت يحيى بن يحيى الليثي وعقله، فقد روي عنه إنه كان عنده يوما جالسا في جملة أصحاب مالك، إذ قال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه، فقال له مالك: ما لك لم تخرج فتراه إذ ليس بأرض الأندلس؟ فقال له يحيى: إنما جئت من بلدي، لأنظر إليك، وأتعلم من هديك وعلمك، لا إلى النظر إلى الفيل، فأعجب به مالك وسماه العاقل[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص ص ٦٩١-٦٩٢].

عناية المعلم والمتعلم بنظافة جسمه ومظهره:

المدرس هو محط أنظار طلابه، وهو المثل الأعلى لهم والقدوة الصالحة في كل تصرفاته وأفعاله، ثم هو محط تكريمهم واحترامهم، بل إنه لا يستطيع أن يكون مفيداً كل الفائدة إلا إذا تحلى بهذه الصفة.

وتحتاج كل تربية إلى نموذج واضح يجسد معالم هذه التربية ويوضح تعاليمها بصورة واقعية تنقل المجرد إلى محسوس، والقول إلى عمل، والنظرية إلى تطبيق. وفي التربية الإسلامية لا يوجد أعظم ولا أكمل ولا أفضل من شخصية محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لتكون نموذجاً حياً، وقدوة حسنة للإنسان المسلم في كل زمان ومكان، ثم يأتي من بعده العلماء، والذين هم ورثة الأنبياء، وهذا من أعظم المناقب لأهل العلم.

فالإمام مالك كان يعتني بلباسه ومظهره عامداً إلى ذلك عمداً، وكان يقول: "ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يُرى أثر نعمته عليه، وخصوصاً أهل العلم، ينبغي لهم أن يظهروا مروءتهم في ثيابهم إجلالاً للعلم"[الزواوي، ١٤١١هـ، ص١٥٥].

وربما أبدى بعض الناس ملاحظات حول العناية الفائقة التي كان مالك يوليها ملبسه ومظهره العام، وأن ذلك ربما كان بعيداً عن التواضع فيقول مجيباً هؤلاء: "التواضع في التقى والدين لا في اللباس"، ويكرر القول: "إنما كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس"[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٣٥].

وليس من شك في أن المظهر الجميل إذا رافقه علم نافع وعقل راجح، كان أكثر تأثيراً في النفوس ، وأدعى للقبول عند الناس، وأدعى للاحترام وأخلق بالهيبة، وحري بالإجلال[الشكعة، ١٤١٨هـ، ص٣٥].

وهذا بدوره ينفي الزعم الباطل القائل بأن الإسلام لا يهتم بالناحية الجسمية، بل ويؤكد قضية التوازن في اهتمام التربية الإسلامية ورعايتها لمختلف الجوانب الجسمية والروحية والعقلية، فلا يستغرب بعد ذلك أن يعرف المسلم لأول وهلة حين يرى سمته ووقاره، وهيئته الخارجية وشكله العام الذي يميزه عن غيره من

الناس، لأن هذه السنن في مجموعها جعلت له شخصية مميزة، ومظهراً خاصاً، ونموذجاً فريداً يقتدي فيه بإمام الطاهرين وقدوة الناس أجمعين ــ صلى الله عليه وسلم.

ويرى الباحث أن المظهر الجميل إذا اقترن بالعلم وحسن الخلق كان مبدأ تربويا هاما، يجب أن يتحلى به كل من المعلم والمتعلم على السواء.

النقد والتمحيص:

إن ثقافة النقد التربوي تعدُّ ضرورةً على جميع المستويات، وفي مختلف مناشط الحياة، سواء في مجالات الإنتاج أو الخدمات أو الفكر والتنظيم أو الكتابة والتأليف أو التربية والتعليم أو غيره.

و مما يبيِّن بِجَلاءٍ أهميةَ معرفةِ النقد التربوي في تصحيح المسار السلوكي، ومواجهة الآراء الشاذة، والأفكار المنحرفة، والتحليلات الخاطئة .

لقد بذل علماء المسلمين جهدا ليس له مثيل في حفظ السنة وتمييز صحيحها من فاسدها، وأن الطرق التي سلكوها هي أقوم الطرق العلمية للنقد والتمحيص، فهم أول من وضعوا قواعد النقد العلمي الدقيق للأخبار والمرويات بين أمم الأرض كلها[السّباعي، ٢٠٠٠م، ص١٠٨].

وهذا الأمر دعا الإمام مالك إلى أن يضع مقياسين لرد بعض الأحاديث: **الأول**: يتعلق بالسند، وهو أن الراوي إذا كان مبتدعاً يدعو إلى بدعيته فإنه لا يقبل حديثه. **والثاني**: يتعلق بالمتن، وهو أنه إذا كان الحديث مما يستدل به أصحاب البدع تركه.

قال محمد بن إسحاق الثقفي السَرَّاج: "سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن أصح الأسانيد فقال: مالك عن نافع عن ابن عمر"[المقدسي، ١٤١٦هـ، ص٨٧].

الحرص على التعلم:

على المدرس أن يتحلى أثناء قيامه بمهمة التدريس بالصبر الطويل والصدر الواسع والخلق الكريم، لأن التدريس مهمة شاقة تحتاج إلى ذلك الصبر، ثم إن العلم لا ينتقل من المدرس إلى طلابه إلا إذا كان بين الطلاب وأستاذهم جسر من المحبة والمودة، ولا قيام لهذا الجسر مع الخلق السيئ والصدر الضيق، وقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه ــ صلى الله عليه وسلم: M (* + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 ...L[آل عمران:١٥٩].

إن العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله ــ وذكر الإمام البخاري في كتاب "العلم" من صحيحه: أن العلم يسبق العمل، وأما الإمام مالك، فقال ابن القاسم: سمعته يقول: إن أقواما ابتغوا العبادة، وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك[ابن قيّم الجوزية، ١٤١٩هـ، ص١٢٣].

يقول الإمام مالك: كان لي أخ في سن ابن شهاب الزهري، فألقى أبي يوما علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت فقال أبي: ألهاك اللعب بالحمام عن طلب العلم، فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين لم أخلطه بغيره. ويظهر أن الأب كان يراقب سير ابنه في الطلب، ويقيس مستواه في التحصيل[خليفة،١٤١٣هـ، ص١٥].

وهذه الواقعة تدل على أن والده لم يكن خلواً من العلم، بل كان له إلمام بشيء من المسائل العلمية، كما أنها تشتمل على ناحية تربوية هامة ألا وهي متابعة الوالد لأولاده لمعرفة مدى جديتهم في طلب العلم، ثم تحريضه إياهم على الجد فيه، فهذه المتابعة الأبوية ثم المعاتبة اللطيفة كانتا السبب في انقطاع الولد ــ أعني الإمام ــ للطلب وحرصه عليه واجتهاده في سبيله[موسى، ١٤٢٨هـ، ص٣٨].

وسُئِل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد فقال: لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم[القابسي،١٩٨٦م، ص١٤٥]. ويتضح مما سبق أن الأسرة منذ ذلك الوقت تسعى لتنشئة أبنائها وتربيتهم التربية الصحيحة المتكاملة لجميع الجوانب الإنسان، فهي تدفع بأبنائها منذ نعومة أظفارهم إلى أماكن التربية والتعليم.

أصول المذهب المالكي في حلقات التدريس والفتوى:

اعتمد الإمام مالك بن أنس في حلقات التدريس لتلاميذه وكذا في فتواه على أدلة قد تكون نقلية أو عقلية.

فالأدلة النقلية هي: التي تثبت عن طريق النقل ويكون أساس الاعتماد فيها على المنقول، ولا شأن للمجتهد في تكوينها وإيجادها، ويقتصر عمله على فهم الأحكام منها بعد ثبوتها، وهي: الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وما يلحق بهما من الإجماع، وقول الصحابي، وشرع من قبلنا، وعمل أهل المدينة[موسى، ١٤٢٨هـ، ص٥٣].

والأدلة العقلية هي: التي يتضح من خلال بناء الحكم عليها عمل العقل واجتهاده بشكل بارز، ويكون للمجتهد دخل في تكوينها، وهي: القياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والعرف، والاستصحاب، والذرائع، والاستقراء[موسى، ١٤٢٨هـ، ص٥٣].

آداب طالب العلم:

أبدى الإمام مالك منذ صغره رغبته في التعلم وحدَّث أمه في ذلك، فوافقته وشجعته على تحقيق رغبته، وألبسته أحسن الثياب، وعمَّمته وقالت له: "اذهب إلى ربيعة والزم مجلسه وتعلم أدبه قبل علمه"،[إبراهيم، د.ت، ص٦٨].

فهذه الأم من وراء هذا الماضي البعيد تؤكد على مبدأ تربوي إسلامي مهم وهو بأن الأدب قبل العلم. والأمم في العصر الحاضر تعاني أزمة أخلاق، لأنها قدمت العلم على الأدب بل أهملته في بعض الأحيان فأصبحت الحياة مادية بحتة.

وهذه المرأة عرفت دورها في الحياة، ورسالتها في التربية وإعداد الجيل، وأن الأدب قرين العلم، ولا قيمة للعلم بلا أدب، والأدب في ابتداء العلم وأثناء العلم، فصنعت هذه المرأة رجلاً صنع أمة.

ولأهمية هذا الأمر قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [الألباني، ١٤٠٥هـ، رقم:٤٥]، فلم يقل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ "بعثت" وإنما قال "إنما بعثت..." وإنما في لغة العرب تفيد الحصر والقصر، ولم يقل ــ صلى الله عليه وسلم ــ "إنما بعثت لأتمم الأخلاق..." إنما قال "...مكارم...الأخلاق..." فليست الأخلاق هنا هي المقصودة، إنما مكارمها، أي أعلى درجاتها، وأرقى منازلها.

فليست مهمة الأم تغذيةَ الجسد والعمل على وقايته من الأمراض فحسب، بل رسالتها أجل وأكبر وأعظم، رسالتها تقوية الإيمان، وبناء الشخصية، وتنمية العقل، وحفز الهمم نحو المعالي، ولن تبلغ ذلك حتى تذوي كل الهموم الدنيوية أمام هم التربية الأكبر، لقد صبغت هذه الكلمة حياة مالك حقيقة لا قولاً، وواقعًا لا خيالاً، فغدا مدرسة في الأدب ينهل طلابه من هيئته وسمته، وتقتبس الأمة من سيرته.

والجفوة بين العلم والأدب تفرز أعراضًا مرضية، منها التهجم على العلماء، والتطاول على الفضلاء، وسوء الأخلاق، وشذوذ السلوك، وعقوق الوالدين، والتقليد الأعمى في الهيئة واللباس، مع اعتداء على المعلمين والمربين بالأقوال والأفعال.

وعرف مالك بالأدب الجم والوقار واحترام العلم فلم يكن يستمع للدرس إلا جالساً هادئ النفس مطمئناً لما يلقى عليه، وكان من أدبه احترام مدينة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فلم يركب دابة فيها أبداً، وكان احترامه لحديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يملي عليه سلوكاً معيناً في الأدب فكان يرفض أن يستمع للعلم وهو واقف بل لا بد أن يجلس لسماعه. سئل الإمام مالك: أَسَمِعَ عن عمرو بن دينار؟ فقال:"رأيته يحدث، والناس قيام يكتبون، فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنا قائم"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١١٨].

وكان يكره مالك أن يحدث في الطريق وهو قائم أو يستعجل، فقال: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وكراهته التحديث

في الأحوال التي ذكرت من المشي والقيام وعلى غير طهارة؛ إنما هي على سبيل التوقير للحديث والتعظيم والتنزيه له[ابن عبدالبر، د.ت، ص ص١٢١٩-١٢٢٠].

يقول الإمام مالك: "حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، ويكون متبعاً لآثار من مضى قبله"[السيوطي،١٤٣١، ص٣٥].

وقال ابن وهب: "الذي تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه"، وقال يحيى بن يحيى التميمي: "أقمت عند مالك بن أنس بعد سماعي منه سنة، أتعلم هيئته وشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين"[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١١١، ١٤٧].

وروي عن خالد بن نزار أنه قال: سمعت مالك بن أنس يقول لفتى من قريش: تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم[السيوطي،١٤٣١هـ، ص٣٥].

وكان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج يحدث توضأ، وضوءه للصلاة، ولبس أحسنَ ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشَّط لحيته، فقيل له في ذلك فقال: أُوَقِّرُ به حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ[المقدسي،١٤١٦هـ ، ص٨٧].

ولم يكن الإمام مالك مزّاحاً، ولا كان يقبل المزاح أمامه، بل كان قليل الضحك، ويقول: ينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وخصوصاً إذا ذكر العلم[الجندي، د.ت، ص٨٦].

الأمانة العلمية:

إذا كان العالم غير متثبت مما يقول فعليه في شجاعة أن يعترف بأنه لا يدري، ومن حسب نفسه قد أوتي العلم كله فهو الجاهل حقا.

روي أن الإمام مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري[المقدسي، ١٤١٦هـ، ص٩٤].

ولقد يجيئه الرجل بعد ستة أشهر مشاها، فيسأله عن مسألة فيقول له مالك: "أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها"، فيقول الرجل من أهل المغرب: ومن يعلمها؟ فيقول مالك: "من علمه الله" أو يقول : "ما سمعنا بهذه المسائل في بلدنا، ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها" فيقول الرجل: يا أبا عبدالله، تركت خلفي من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك، فيقول الإمام مالك غير مستوحش:"إذا رجعت فأخبرهم أني لا أحسن"[الجندي، د.ت، ص٨٧].

وقال الإمام مالك: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافقهما فاتركوه"[الراعي، ١٩٨١م، ص١٩٤].

وقال: "ينبغي للمرء ألا يتكلم إلا فيما أحاط به خبراً"[الجندي، د.ت، ص٧٩].

وكان حريصاً على تنبيه الناس على عدم الكتابة عنه أحياناً إذا أحس أن قلبه غير مطمئن ويقول: "إنني بشر أخطئ وأرجع، وكل ما أقوله يكتب!". وقال أشهب: رآني أكتب جوابه في مسألة، فقال: "لا تكتبها، فإني لا أدري أثبت عليها أم لا". فكان حريصاً على ألا يكتب تلاميذه أو ينقل الناس عنه إلا ما فحصه ووصل فيه إلى إجابة نهائية تقديراً منه لضرورة أن تكون المعرفة يقينية، ولكي يجنب الناس الوقوع تحت تضارب الآراء، أو إجاباته في المسألة الواحدة، أو أن يكون له أكثر من قول في الأمر الواحد، وكانت عاداته ألا يجيب إلا إذا استقام لديه الدليل

والحجة الشرعية، وكثيراً ما كان يطلب من السائل أن ينصرف، فيفكر في المسألة حتى يهتدي إلى وجه"[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص٥٧].

وسأله بشر بن عمر عن رجل، فقال مالك : هل رأيته في كتبي؟ فقال بشر: لا. قال: لو كان ثقة لرأيته في كتبي[الجندي، د.ت، ص٨٨].

وكما كان يرفض أن يتولى تعليم المسلمين غير المسلم، قال ابن وهب: قال لي مالك: " لا تترك أحداً من أهل الكتاب يعلم المسلمين" ولكن هذا التحذير ــ فيما يظهر ــ إنما هو فيما يخص العلوم الدينية[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص٣٠٥].

وكان إذا سئل عن المسألة يقول للسائل: انصرف حتى أنظر فيها، فينصرف ويتردد فيها وهو يقول: ربما وردت عليَّ المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي، وقد يشغله التفكير عن خاص شأنه الحيوي، كما روي عنه: ربما وردت عليَّ المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم، وقد يطول تفكيره طولا غير معهود، فهو فيما يروى عنه يقول: إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن، وتزيد السنوات فتصل إلى عشرين، إذ يقول لسحنون ــ أحد تلاميذه ــ يوما: اليوم لي عشرون سنة، أتفكر في هذه المسألة، وهو يفكر ولا يصل، ويرى أخيراً أن العلم لمن علَّمه الله[الخولي، د.ت، ص٤٦٢].

ولا شك أن المعلم الذي يقول لا أدري عندما لا يدري ويعترف بخطئه إذا أخطأ يكتسب ثقة طلابه ومحبتهم، ويقبلون عليه بالسؤال والاستفسار؛ لشعورهم بأنه صاحب حقيقة يجهر بها، فهذا أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ مع ما خصه الله تعالى به من الفضل والعلم يقول: "أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله بغير علم"[مكي، ١٤٢٤هـ، ص٦٥].

رعاية المتفوقين والموهوبين:

يمثل الابن الموهوب ثروة لا تقدر بثمن، وتعتبر الأسرة هي البوابة الرئيسة لانطلاقة الموهوب، وتنمية ملكاته وقدراته، ومساعدته على اكتشاف ذاته، والسعي نحو تحقيق الذات.

ومن المواهب التي أعطاها الله الإمام مالكا ــ رحمه الله ــ قوة فراسته. قال الشافعي: لما سرت إلى المدينة ولقيت مالكا وسمع كلامي نظر إليَّ ساعة، ثم قال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد، قال: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن[خليفة، ١٤١٣هـ، ص٧١].

وكان أبو الشافعي قد هاجر من مكة إلى غزة بفلسطين بحثا عن الرزق، لكنه مات بعد ولادة ابنه بمدة قصيرة فنشأ محمد يتيما فقيرا، ولما بلغ سنتين قررت أمه العودة وابنها إلى مكة، فأخذته إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة، ولم يكن معها من المال ما يكفي أجراً للمعلم، فلما رأى المعلم نجابته وسرعة حفظه ما جعله يسامحه بأجره، فأتم حفظ القرآن الكريم وعمره سبع سنين، وحفظ أيضا وهو ابن ثلاث عشرة سنة كتاب الموطأ[الدقر، ١٤٠٩هـ، ص ص١٩٩-٢٠٢].

ثم طلبت له الأمّ النابغة طلبا من والي مكة، ليست وظيفة لابنها الفقير النابه سليل الحسب، بل سألته أن يرسل رسالة توصية ليهتم به مالك، وأن يتبناه علميا، فلازم الإمام مالكاً عشر سنوات، فلله درك يا أم محمد!

والثروة البشريـــــة تُمثل الثروة الحقيقية لأي مجتمع من المجتمعات، وأن من يوصفون بالمتفوقين والموهوبين في أي مجتمع إنما هم بمثابة القلب النابض

والعقل المُفكر له، نظرا لأهميتهم البالغة، وأثرهم الفاعل والإيجابي في مواجهة مختلف التحديات في أي زمانٍ ومكان.

فالفراسة النافذة لازمة لكل من يتصدى لإرشاد طائفة من الناس أو تعليمهم؛ فإنه يستطيع أن يعرف خفايا نفوسهم فيعطيها ما يكون غذاء صالحاً لها تقوى على هضمه.

ويرى الباحث أن العناية بالموهوب لا تقف عند حد اكتشاف موهبته، أو كتابة اسمه في لوحة شرف؛ إنما تبدأ العناية من أسرة تكتشف موهبته وتنميها، ثم مدرسة تطورها وتؤصلها، ثم مجتمع يحتضنه ويقدر موهبته، ويهيئ له الفرص لممارسة موهبته على أرض الواقع.

المبحث الثالث: من آراء الإمام مالك التعليمية

المساواة في التعليم:

المساواة هي إتاحة الفرصة لكل طالب علم على أساس رغبته وقدرته على الاستفادة، فلا يفرق بين طالب وطالب على أساس المال ولا على أساس النسب ولا على أساس السن الزمني، بل تتاح الفرصة لكل الطلاب بالتساوي.

هذا المبدأ لم يكن معروفاً في أوربا في العصور الوسطى عندما كانت الكنيسة هي المتحكمة، وعندما كان رجال الدين يتمتعون بالمركز الأول في الدولة، في ذلك الزمن كان هناك مؤسسات تربوية خاصة بأبناء رجال الدين لا يجوز لغيرهم دخولها، كما أن هناك مؤسسات تربوية خاصة بأبناء الضباط والعسكريين لا يجوز لعامة الشعب دخولها، كما أن هناك مؤسسات تربوية خاصة لعامة الشعب لا يتنزل أبناء الضباط وأبناء رجال الدين إلى دخولها، فكان التعليم طبقياً كما كان المجتمع كذلك في تلك العصور.

وهذا المبدأ ــ مبدأ المساواة في التعليم ــ يعد في عالم التربية أحد أرقى المبادئ التربوية الحديثة، ويعد فتحاً جديداً في عالم التربية، ولو رجعنا إلى تاريخ التربية الإسلامية لوجدنا هذا المبدأ مطبقاً منذ العصور الإسلامية الأولى، فالمساجد والمكتبات والكتاتيب وكذلك كل حلقات العلم الخاصة مفتوحة أمام طلاب العلم جميعاً على التساوي، لا فرق فيها بين غني وفقير، ولا عربي وأعجمي، بل يرودها من أراد دون حاجز يمنعه من ذلك من عرق أو نسب أو لون.

وهذا المبدأ ــ مبدأ المساواة ــ كان تطبيقاً لتعاليم السنة المطهرة، فقد روي عن أنس مرفوعاً: "أيما مؤدب ولي تعليم ثلاثة صبيان من أمتي، ثم لم يعلمهم

بالسوية، ولم يعدل بينهم، حشر يوم القيامة مع قتلة الأنفس إلى نار جهنم"[الكناني، ١٤٠١هـ، ص٢٥٣]. وبذلك تكون التربية الإسلامية قد سبقت التربية الحديثة بعشرات القرون في إظهار هذا المبدأ الأصيل من مبادئ التربية.

والناس في حلقة مالك أجناس متعددة، وطبقات مختلفة، فيهم الفرس والمصريون، والترك والعرب، والأفارقة، والآسيويون، وأهل أوربا من الأندلس، ومنهم الخلفاء من نسل المنصور: المهدي والهادي، والرشيد والأمين والمأمون، ومنهم الولاة الكبار وأمراء المدينة الذين كانوا له تبعاً، ومنهم أئمة الإسلام يتوافدون إماماً بعد إمام؛ ليستوثقوا من علمهم، جمعهم طلب العلم، وساوت بينهم عدالة الشريعة الإسلامية[الجندي، د.ت، ص٩٢].

الممارسة العملية للتعليم:

ولمكانة العلم والتعليم جعل الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فداء الأسرى من المشركين لأنفسهم يوم بدر أن يعلموا المسلمين القراءة والكتابة، وهذه المعاملة للأسرى بهذه الصورة الفريدة كانت حدثاً جديداً في تاريخ البشرية لم يأت به إلا الرسول الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد جعل التعليم حقاً مشاعاً للمسلمين رجالاً ونساءً[محجوب، ١٤٠٨هـ، ص٣٧].

وكان مالك يقول: "لا ينبغي لأحد عنده علم أن يترك التعليم"[التواني، ١٤٠٠هـ، ص٣٠٥].

إن التقدم العلمي للأمم لا يتم إلا بأن يكون التطبيق مطابقاً للنظرية والعلم معمولاً به، والتحقيق العلمي السليم هو منطلق كل سلوك أو فعل، فالمسلم لا يخطو خطوة أو ينطق كلمة أو يفتي برأي إلا إذا تأكد منه علمياً، وفي ذلك يقول الله

تعالى: M وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا L[الإسراء:٣٦]. وهذا هو أساس البحث العلمي الذي تبنى عليه الحقائق والنظريات العلمية[محجوب، ١٤٠٨هـ، ص٣٩].

تعليم المرأة:

لقد كان الإسلام رحمة للبشرية كلها، ولم يستثن من ذلك جنساً دون آخر، بل تكريمه للمرأة عظيماً، وعنايته خاصة، وبيانه لحقوقها وواجباتها واضحاً جلياً، فالإسلام قد سبق غيره، بأن جعل التعليم حقاً مكتسباً وثابتاً للإنسان، بغض النظر عن جنسه أو لونه أو عرقه، ذلك لأن الإسلام دعوة عامة لكافة البشر، ومن ثم فلا بد أن تكون الدعوة للتعليم والتربية عامة للجميع[الحمد،١٤٢٣هـ، ص٢٦٦].

وقد كان للإمام بنت تسمى "فاطمة" ويقال لها أم البنين، وكانت تحفظ علمه ــ يعني الموطأ ــ، وكانت إذا عقد أبوها مجلسه في منزله، تجلس خلف الباب تسمع قراءة من يقرأ على أبيها الموطأ، فإذا أخطأ القارئ دقت الباب، فيأمر مالك من يقرأ بأن يعيد القراءة ويصحح الخطأ. ومن العجيب أن ابنته نالت هذه المكانة العلمية، وبقي أبناؤه دونها بمراحل، وكان مالك يتعجب من هذا التفاوت ويقول: إنما الأدب أدب الله، هذا ابني، وهذه ابنتي![الشرباصي، د.ت، ص١١٦].

الموضوعية:

يمكن القول أن علم الحديث يعتمد على أمرين، وما سواهما تبع لهما: أولهما: انتقاء الرجل الثَّبت الصادق الضابط المتقن في جميع السند، وثانيهما: اتصال السَّند إلى أن يبلغ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وكان الإمام مالك أولَ من دقق بالرجال، بل بالغ بالتدقيق والانتقاء، وقد يكون أول من حاول وضع

أصول علم الحديث. وكان له في نقد الرجال عجائب، وقد يكون الرجل ديِّناً صيِّناً لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً فلا يحدِّث عنه؛ لأنَّه ليس من هذا الشأن، وكان حَسْبَ الرجل ليكونَ ثقة عند العلماء أن يرويَ عنه مالك، وكان الشكُّ في الرجل يعني تركَه عند مالك[الدقر،١٤١٩هـ، ص٨٠].

اختيار المعلم الكفء:

اختار مالك لنفسه المعلمين الأفذاذ الذين كانوا له ولغيره في عصرهم فوجد عند ابن هرمز العلم والتواضع، وكان منقطعاً للعلم دؤوباً في طلبه منهم، ويؤسس مالك نظرية لاختيار المعلم وضرورة أن يكون صالحاً، وألا يجلس طالب العلم إلا لمن يصلح أن يكون قدوة، وأن يكون متخصصاً فيما يعلمه. يقول مالك: لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عند هذه الأساطين وأشار إلى المسجد فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن". ويمكننا أن نعرف جانباً آخر من المنهج عنده وهو أن الصلاحية تقوم على تخصص دقيق، وأخلاق سامية قويمة، فالقدوة السامية أولا وأخيراً[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١١٩].

قال ابن أبي أويس: سمعت مالكاً يقول: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه"، وقال ابن عيينة: "ما رأيت أحداً أجود أخذاً للعلم من مالك، وما كان أشد انتقاده للرجال والعلماء"[ابن فرحون، ١٤١٧هـ، ص٦٤].

بل في صريح كلام الإمام مالك أنه لا يؤخذ العلم عن أربعة، حيث قال: "لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ من سوى ذلك: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن

كان لا يتهم على أحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحدث"[الباجي، ٢٠٠٤م، ص٣٥].

ولمالك شرط في الإجازة: أن يكون الفرع مُعَارَضاً بالأصل حتى كأنه هو، وأن يكون المُجيز عالماً بما يجيز، ثقةً في دينه، معروفاً بالعلم، وأن يكون المُجازُ من أهل العلم، متّسماً به؛ حتى لا يضع العلمَ إلا عند أهله[القاضي عياض، ١٣٨٩هـ، ص٩٥].

وقال الإمام مالك: "لا أُوتَى برجل يفسر كتاب الله غيرَ عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالاً"[لحمر، ١٤١٥هـ، ص٣٩].

الاستمرارية في التعلم والتعليم:

الإسلام لم يضع حداً معيناً للتعليم، فقد جعل التعليم مطلبا للإنسان ما دام حياً، لأن العلوم بحر زاخر، إذا لم يستمر الإنسان في طلب العلم وزاد فيه، لا بد أن يتلاشى.

وقد عاش الإمام مالك قريبا من تسعين سنة، ومكث يفتي الناس ويعلمهم أكثر من ستين سنة، واختلف في السن التي جلس فيها للتدريس، ما بين السابعة عشرة والعشرين من عمره، وشهد له التابعون بالفقه والحديث، واحتاج إليه معلموه، وسألوه عن أمر دينهم[خليفة، ١٤١٣هـ، ص١٣].

ولا تحسب أن مالكا قد انقطع عن طلب العلم والمعرفة بعد أن تلقى عن الشيوخ الكثيرين، واستوعب ما يطيق من علمهم ورأيهم، وبعد أن صار أستاذا يتصدر مجلس التدريس، بل واصل الدراسة بنفسه ولم ينقطع عنها، وكان يلاقي الوافدين على المدينة من العلماء والفقهاء، فيتحدث إليهم، ويتبادل معهم العلم

والفقه، وهو يجالس علماء المدينة كلما لاحت له فرصة المجالسة، وهو يكاتب النائين من الفقهاء والعلماء في مختلف مسائل الدين والعلم، وهو يبحث عن كل كتاب يبلغه خبره ليقتنيه أو يطالعه، وهو بعد هذا كله يواصل النظر والبحث فيما بينه وبين نفسه[الشرباصي، د.ت، ص٨٢].

التفرغ للتعليم وحقوق المعلم:

انفجرت أول صرخات اجتهاد الإمام مالك حيث ناشد الحاكمين أن يمكنوا أهل العلم من التفرغ للعلم، وأن يجروا عليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة، غير أن أحدا لم يلتفت إليه، فقد كانت الدولة الأموية التي عاش شبابه في ظلها مشغولة بتثبيت أركانها، وبتألف قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم. وأستمر مالك في مطالبه حتى وجد من الخلفاء من يستجيب إلى ندائه المتصل أن تجرى الرواتب على أهل العلم[دار المستقبل،٢٠٠٢م، ص٢٩].

وروي عن مالك أنه قال: كل من أدركت من أهل العلم لا يرى بأجر المعلمين ــ معلمي الكُتَّاب ــ بأساً، وسئل مالكٌ عن الرجل يجعل للرجل عشرين دينارا، يعلم ابنه الكتابة والقرآن حتى يحذقه، فقال لا بأس بذلك، وإن لم يضرب أجلاً. ثم قال: والقرآنُ الكريم أحقُ ما يُعلم، أو قال: عُلِّم. وقال ابنُ وهب في مُوطِّئِه: سمعتُ مالِكا يقول: لا بأس بأخذ الأجر على تعليم القرآن الكريم والكتابة. قال: فقلتُ لمالك: أفرأيت إذا شرط مع مالهُ من الأجر في ذلك شيئا مُسمَّى كلّ فِطرٍ أو أضحى؟ قال: لا بأس بذلك[القابسي،١٩٨٦م، ص٩٩].

وسأل معلم الكُتاب مالكاً فقال: يا أبا عبدالله، إني رجل مؤدب الصبيان، وإنه بلغني شيء، فكرهت أن أشارط، وقد امتنع الناس عليّ، وليس يعطونني كما

كانوا يعطون، وقد اضطررت بعيالي وليس لي حيلة إلا التعليم، فقال له مالك: اذهب وشارط. فانصرف الرجل. فقال له بعض جلسائه: يا أبا عبدالله، تأمره أن يشترط على التعليم؟ فقال لهم مالك: نعم فمن يُمَحِّطُ لنا صبياننا؟ ومن يؤدبهم لنا؟ لولا المعلمون أي شيء كنا نكون نحن؟[القابسي،١٩٨٦م، ص ص٩٩-١٠٠].

مراعاة الفروق الفردية:

كان في زمن مالك منازعات فكرية، والتحام بين آراء وعقائد متباينة مضطربة، مما يوجب على العالم أن يكون حاجزاً منيعاً أمام هذه التيارات حتى لا يتأثر بها أفراد مجتمعه، وأن يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة، وأن يستخدم جميع الوسائل للتصدي لهذه الأفكار الهدامة، فالإمام مالك ــ رحمه الله ــ كان على علم بشؤون النحل المتباينة ولكنه ما كان يخوض في شأنها، وما كان يسمح لأحد أن يجري المناقشة حولها؛ لأنه ما كان يسوغ للعالم أن يتكلم بكل ما يعلم، بل كان يطالبه بألا يتكلم إلا بما يفيد، ويطيقه السامعون، وتستسيغه نفوسهم[أبوزهرة، ٢٠٠٢م، ص١٢٨].

وقال مالك: "لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه، فإنه ذل وإهانة للعلم"[الشرباصي، ب.د، ص٩٧].

وكان مالك يلقي الدرس على أساس الأخذ باختلاف مستويات الدارسين، فكان للخاصة حديث خاص، وللعامة حديث آخر يتفق مع مستواهم العلمي وما يصلح لهم من دروس، وكان في أيام الحج يخصص دروساً لحجاج كل بلد ولا يجمع الحجيج في درس واحد إذا كان الازدحام شديداً.

وقد قسم الإمام مالك العلم إلى قسمين: علم يلقى على الجمهور ولا يخص به أحدا إذ لا ضرر فيه لأحد، وكل العقول تقوى على قبوله والانتفاع به، وقسم لا يصح أن يعرفه إلا خاصة الناس؛ فلا يلقى على العامة؛ لأن ضرره على النفوس أكثر من نفعه، وربما يفهمونه على غير وجهه، ومن ذلك الرد على أهل الأهواء[خليفة، ١٤١٣هـ، ص١٩].

وقال المهدي: أخبرني بعض نقاد المعتزلة من القرويين قال: أتيت مالك بن أنس، فسألته عن مسألة من القدر بحضرة الناس، فأومأ إلي: أن اسكت، فلما خلا المجلس قال لي: سل الآن، و كره أن يجيبني بحضرة الناس، قال: فزعم المعتزلي أنه لم تبق له مسألة من مسائلهم إلا سأله عنها، و أجابه فيها، و أقام الحجة على بطالة مذهبهم، حتى نفد ما عند المعتزلي و قام عنه[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٧٣].

وأن مالكاً نفسه لم يكن ليحدث بكل ما سمع فقد جاءت عنه روايات أنه وجِد بمنزله بعد وفاته كتباً لم يسمع عنه أنه حدث بها. وقد جاء عن مالك نفسه أنه قال: " إذا حدثتُ الناس بكل ما سمعت إني إذا أحمق"[الزيتوني، ١٤٠٠هـ، ص٢١٦].

وقيل لابن هرمز ــ شيخ الإمام مالك ــ: نسألك فلا تجيبنا ويسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما؟ فقال: دخل عليَّ في بدني ضعف ولا آمن أن يكون قد دخل عليَّ في عقلي مثل ذلك، وأنتم إذا سألتموني عن الشيء فأجبتكم قبلتموه، ومالك وعبدالعزيز ينظران فيه، فإن كان صواباً قبلاه، وإن كان غيره تركاه. وقال محمد بن سعد: كان مالك ثقة مأموناً، ثبتاً، فقيهاً، ورعاً حجة، عالماً[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٣٩].

كل أمة من الأمم تسعى إلى حماية شعوبها وأفراد مجتمعها من الأفكار الدخيلة مهما كانت أبعادها، وللإمام مالك مواقف مشرفة في التصدي لتلك الأفكار، وكان حريصاً على سلامة فكر الإنسان من الانحراف أو الخروج عن الوسطية والاعتدال، ومن ذلك أنه كان حريصاً على تلاميذه أن لا تلقى على مسامعهم مثل هذه الشبه التي تفسد عليهم عقيدتهم، فالوقاية خير من العلاج، وهذا ما يسمى في عصرنا الحاضر بالأمن الفكري.

العقاب عند الإمام مالك:

سُئل مالكٌ عن معلم لو ضربَ صبياً ففقأَ عينه أو كسر يده، فقال: إن ضربه بالدِّرَّة على الأدب، وأصابَه بعودها فكسر يده، أو فقأَ عينه، فالدِّيةُ على العاقلة إذا عمل ما يجوز له، فإن مات الصبي فالدية على العاقلة بالقسامة، وعليه الكفارة، فإن ضربه باللوح أو بعصا فقتله فعليه القصاص، لأنه لم يؤذن له أن يضربَه بعصا، ولا بلوح[ابن سحنون،١٣٩٢هـ، ص ص ١٣٥-١٣٦].

وقال ابن مهدي: مشيت مع الإمام مالك يوماً إلى العقيق من المسجد، فسألته عن حديث، فانتهرني، وفي رواية فالتفت إليَّ وقال لي: كنت في عيني أجلّ من هذا، تسألني عن حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونحن نمشي؟ فقلت إنا لله، ما أراني إلا وقد سقطت من عينه، فلما قعد في مجلسه بعدت عنه، فقال: ادن هاهنا فدنوت، فقال: قد ظننت أنا أدبناك، تسألني عن حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنا أمشي! سل عما تريد هاهنا[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٧٣].

وقال يحيى: سمعتُ مالكا يقول: الأمر المجتمع عليه عندنا أن شهادة الصبيان تجوز فيما بينهم من الجِراح، ولا تجوزُ على غيرهم، وإنما تجوز شهادتهم فيما بينهم من الجراح وحْدَها، لا تجوز في غير ذلك، إذا كان ذلك قبل أن يتفرقوا، أو يُخَبَّبُوا، أو يُعَلَّموا، فإن افترقوا فلا شهادة لهم، إلا أن يكونوا قد أَشْهَدوا العُدول على شهادتهم قبل أن يتفرقوا[أنس، ١٤٣٢هـ، ص٥٥٤].

ويرى الباحث أن للإمام مالك ــ رحمه الله ــ آراء تربوية سديدة، تنم عن شخصية تربوية عظيمة، لها نظرات ثاقبة وأفكار نيرة في ميدان التربية وتلقي العلم، وقد يدهش المرء عندما يجد أن معظم تلك الأفكار تتوافق مع ما وصلت إليه التربية الحديثة في عالم اليوم، ولعل من أهم المبادئ التي نادى بها الإمام مالك: الإخلاص لله في طلب العلم، ووجوب تعليمه وتحريم كتمانه، والأمانة العلمية، والصدق في نقل العلم، والعمل به (الممارسة العملية للعلم)، والتفرغ للعلم، وإجراء الرواتب للمعلمين، والمساواة في التعليم، ومراعاة الفروق الفردية، والأمن الفكري، وكفاءة المعلم، وطلب العلم من أهله، والاستمرارية في التعلم والتعليم.

المبحث الرابع: الأساليب التعليمية عند الإمام مالك

١ - طريقة التدريس عند الإمام مالك ويشتمل على ما يلي:

مجلس العلم:

التزم مالك في درسه الوقار والسكينة والابتعاد عن لغو القول وما لا يحسن بمثله، وكان يرى ذلك لازماً لطالب العلم. ويروى أنه نصح بعض أولاد أخيه فقال له: تعلّم لذلك العلم الذي علمته السكينة والحلم والوقار، وكان مالك يأخذ نفسه بذلك احتراماً للدرس والحديث. قال إبراهيم بن هارون الليثي ــ وكان من جلساء الإمام مالك ــ: كان لا يحضر مجلس مالك لغط ولا لغو، وكان مهيباً، وإذا سئل عن الشيء فأجاب سائله لا يراجعه السائل ولا يقول له: من أين رأيت؟ وقد لازمته هذه الهيبة طول المدة التي ألقى فيها دروسه وكان يعطي نفسه عند التحديث عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ سمتاً أحسن ومظهراً أروع، فكان إذا حدَّث توضأ وتهيأ، ولبس أحسن ثيابه، وتطيب وتعمم وعليه الخشوع، ويبخر المجلس حتى يفرغ من التحديث[خليفة، ١٤١٣هـ، ص ٢٩].

وهو يرفض أن يحدث من لا حشمة لهم ولا وقار، فقد التفَّ به طلبة بالحرم المكي، وأحاطوا به في غير نظام، فقام مغضباً، ولما عادوا إليه الغداة في حشمة وسكينة حدَّثهم، وقال:"الذي فعلتم أمس فعل السفهاء"[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص٣٠٦].

كان في مجلسه لا يراجع، ولا يكرر، لكيلا يقطع على نفسه سلسلة تفكيره بالمراجعة، ولكيلا يذهب وقار المجلس الذي كان حريصاً كل الحرص على أن

تظله السكينة والوقار، ولكن إذا خلا به خلصاؤه من تلاميذه راجع عليهم ما يريدون أن يثبتوا فيه من المسائل[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٠٢].

القراءة:

روي عن مالك أنه قال: السماع عندنا على ثلاثة أضرب: أولها: قراءتك على العالم، والثاني: قراءته عليك، والثالث: أن يدفع إليك كتاباً قد عرفه فيقول: اروه عني. وكان مالك يحتجُ في هذا بأن الراوي ربَّما سها أو غَلِطَ فيما يقرؤه بنفسه فلا يردُّ عليه الطالبُ السامعُ الغلط وذلك لخلال ثلاث: إما لأن الطالب جاهلٌ فلا يهتدي للرد عليه، وإما لهيبة الراوي وجلالته، وإما أن يكون غلطه في موضع صادَفَ اختلافا فيجعل خلافا توهما أنه مذهبه فيحمل الخطأ صوابا. وروي عنه أن القراءة على الشيخ أعلى مراتب الحديث[القاضي عياض، ١٣٨٩هـ، ص٧٤].

الكتابة:

إذا كان التدوين قد أخذ يحتل الصدارة فترة شباب مالك؛ فإن مالك لم يهمل ذاكرته، بل اعتمد عليها إلى مدى بعيد بجانب ما دونه في حضرة مشايخه، أو بعد حضرتهم فيرى جالسا إلى ظل شجرة يدون ما سمع، وبهذه الذاكرة الفريدة صار المحدث الأول في عصره كأنه النجم الثاقب[خليفة،١٤١٣هـ، ص٦٢].

قام تلامذة مالك الذين لازموه ومن جاء بعدهم بنقل فقهه إلى الأجيال، فقد كانوا يُدونون ما يفتي به في المسائل، وكان أحياناً ينهاهم عن الإفراط في الكتابة، وأكثر الأحيان يتركهم يكتبون، لا يحرضهم ولا ينهاهم، وروي أن ابن وهب كان يراجع ما كتبه عليه، فقد قال: كنت آتي الإمام مالكاً ــ وهو قوي ــ فيأخذ كتابي،

فيقرأ منه وربما وجد فيه الخطأ، فيأخذ خرقة بين يديه، فيبلها في الماء، فيمحوه، ويكتب الصواب[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص ص٢٠٢-٢٠٣].

وكان للإمام مالك كتبة يكتبون له رسائله، وإجازاته لبعض التلاميذ، وربما قرؤوا كتبه بين يديه للعرض على الطلبة، ومنهم: حبيب بن أبي حبيب، ويحيى بن ثابت الجندي اليمني[الحدادي،١٤٢٥هـ، ص ص٣٤-٣٧]..

الحفظ:

لقد آتى الله مالكا حافظة قوية، حتى إنه ليسمع نيفا وأربعين حديثاً مرة واحدة، فيجيء في اليوم التالي، ويلقي على من استمعها منه ــ وهو الزهري ــ أربعين، ولا يضل منه إلا النيف، قال له الزهري: أنت من أوعية العلم وإنك لنعم المستودع للعلم، وقد كان مالك يعتمد على الذاكرة، ثم ينتقل بعد الدرس إلى كتابة ما حفظ، حتى إنه ليستظل تحت الشجرة يكتب ما حفظ بعد مزاولة مجلس الدرس ليدون ما علق بذهنه[أبو زهرة، ٢٠٠٢م، ص ص٧٨-٧٩].

وقال الإمام مالك: "كنت أجلس إلى ابن شهاب، ومعي خيط فإذا حدث عقدت الخيط، ثم رجعت إلى البيت فكتبتها[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١١٨].

مدة الدرس ووقته:

على المدرس أن يترك لطلابه فرصة للراحة بين الحين والحين، فلا يستمر معهم في إلقاء المعلومات إلا بمقدار ما يطيقون، فإذا لاحظ منهم السآمة والملل كف عنهم وتركهم يسرحون بعقولهم ويريحونها، لأن للعقول طاقة محدودة في الاستيعاب، فإذا تعبت عجزت عن الاستفادة، فيكون التعليم مع ذلك عبثاً من وجه

ومضرة من وجه آخر، لما يسببه من إرهاق وإعياء يصعب على العقل أن يستعيد نشاطه بسهولة.

وليس في مصلحة التلاميذ كثرة القراءة في المجلس الواحد، ولذلك كان يقرأ لهم حبيب ــ كاتب الإمام مالك ــ كل عشية من ورقتين ونصف لا تبلغ ثلاثاً. وليس من المنهج كذلك كثرة المسائل، فقد سأله إمام الشام ــ بقية بن الوليد ــ عن ست مسائل فأجابه، ثم يسأله السابعة فيرد مالك: أكثرت! ثم ينادي فيأخذه رجلان بضبعيه ويخرجانه[الجندي، د.ت، ص٨٤،٨٢].

وكان الإمام مالك يكره الزيادة في الأسئلة الفقهية على أكثر من سؤالين أو ثلاثة إلى ستة، بينما في مادة الحديث يتراوح ما يمليه بين العشرة إلى اثني عشر حديثا في الأحوال العادية، ولا يزيد على تقرير عشرين حديثا في الأحوال الاستثنائية[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص ٣٠٨].

أما من حيث الحصة الزمنية، أي الوقت الذي يلقي فيه الإمام مالك درسه، فقد أجمع تلامذته على أنه كان لا يحدث إلا بعد طلوع الشمس، فعن ابن وهب قال: "كان مالك لا يفتي حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام إلى حلقته، وذاكر أصحابه"[التواتي،١٤٠٠هـ، ج٢، ص ٣٠٩].

٢ - المناظرة:

كان من مظاهر النشاط العلمي في ذلك العصر وجود مناظرات بين أرباب المعتقدات الباطلة مع بعضهم، وبينهم وبين أهل السنة. كما كانت هناك مناظرات بين الفقهاء أنفسهم، وبين النحويين واللغويين، وبين بعض الفقهاء مع

بعض النحويين واللغويين، وقد كان للصنف الأخير أثر في لفت نظر الفقهاء لأهمية اللغة بالنسبة للفقه[الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص ١٢٢-١٢٣].

وقد كان الإمام مالك يكره المناظرات في أمور العقيدة، أما المناظرات في المسائل الفقهية فقد كان له مشاركة فيها، لكنه كان مقتصراً على المناظرات التي يرى أن المقصود منها طلب الحق، لا مجرد المناظرة. وكان الإمام مالك يحضر مجالس النقاش التي تجري في مجلس شيخه ابن هرمز، وأحياناً يشارك شيخُه الآخر ربيعة في ذلك النقاش. وكانت تلك المناظرات تجري في مجالس الولاة أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تجري في مجالس العلماء، كما كانت هناك مراسلات بين طائفة من العلماء في أمور علمية. ولاشك أن لتلك المناظرات والمراسلات أثراً كبيراً في إثراء المادة العلمية، وإيجاد نوع من الدقة والعمق في بحث المسائل التي يجري حولها النقاش. [الشعلان،١٤٢٤هـ، ص ص١٢٣-١٢٤]

وقد روي عنه كراهته لذلك. فعن إسحاق بن عيسى قال: قال مالك بن أنس: كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عليه السلام على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجدله[السيوطي، ١٤٣١هـ، ص٣٤].

وقال القاضي عياض: قال مَعْنٌ: انصرف الإمام مالك يوماً، فلحقهُ رجلٌ يقال له: أبو الجويرية، متَّهمٌ بالإرجاء. فقال: اسمع مني، قال: احْذَرْ أن أشهد عليك. قال: والله ما أُريدُ إلا الحقَّ، فإن كان صواباً، فَقُلْ به، أو فتكلم. قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتُك؟ قال: اتَّبعتك. قال: فإن جاءَ رجل فكلمنا؟ فغلبنا؟ قال: اتَّبعناه. فقال مالك: يا هذا، إنَّ الله بعث محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدين واحد، وأراك تَتَنَقَّل[الذهبي،١٤٠٢هـ، ج٨، ص١٠٦].

وعن مالك قال: الجدالُ في الدين ينشئ المِراء، ويذهبُ بنور العلم من القلب ويُقسِّي، ويُورث الضِّغن[الذهبي،١٤٠٢هـ، ج٨، ص١٠٦].

وكان مالك يأتي مكة في الموسم، ويلتقي بالعلماء يبحث معهم ويبحثون معه، فقد التقى بأبي حنيفة، وبالليث بن سعد، وبالأوزاعي، وبأبي يوسف، ومحمد، وكلّهم له عنده مسألة، أو هو له عندهم مسألة، وبمثل هذا يحيى العلم وتتفتح القرائح[الدقر،١٤١٩هـ، ص٥٩].

وكان مالك ينفر من الجدل العلمي الذي يكون الغرض منه السبق، والفوز، ولذلك جابهَ الرشيد بقوله: "ليس العلم كالتحريش بين البهائم والديكة"، لما طلب منه مناظرة أبي يوسف، وكان يعد الجدل في الدين لا ينتج شيئاً وأنه يفسد، ولكنه قد أُثر عنه أنه كان يناظر العلماء المخلصين في كثير من الأحيان، فهو يناظر أبا حنيفة حتى يعرق من المناظرة معه، ويقول لليث: إنه لفقيه يا مصري، ويناظر أبا جعفر المنصور، ويرسل الرسائل لمن يخالفونه يدعوهم إلى رأيه، ولعله ما كان يعتبر تلك المناظرات التي يقصد بها إلى طلب الحق المجرد من قبيل الجدل الذي نهي عنه؛ لأن الأولى لا يقصد منها الغلب واجتياز المجالس، بل يقصد بها طلب الحق، وهي خالية من المراء وتحري الغلط، بل تحري الحق والإخلاص يسودها[أبوزهرة، ٢٠٠٢م، ص ص ١٢٩-١٣٠].

ومن أجل هذا بُغِّضت إليه أقوال الفرق الإسلامية في العقائد، لأنها أثارت أموراً لم يثرها السلف الصالح، وليس من مصلحة المسلمين إثارتها، ولأنها قامت في دراستها على النظر العقلي المجرد، وسلكت سبيل الجدل والمراء، ولم يسلك السلف الصالح ذلك المسلك، والعقل من غير هداية دينية يسير في متاهة، يضل السائر فيها، ويكون كحاطب ليل، ولذلك باعد بينه وبين هذه الفرق، ولم يسلك

طريقها، ولقد قال في ذلك أبو طالب المكي: "كان مالك أبعد الناس من مذاهب المتكلمين، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين". وكان إذا سئل عن السنة لم يدخلهم في سلكها، ولذلك قال له رجل: مَن أهل السنة يا أبا عبدالله؟ قال: "الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي، ولا رافضي، ولا قدري"[أبوزهرة، ٢٠٠٢م، ص١٥٩].

وكان الأئمة الأربعة ــ رحمهم الله تعالى ــ ينشدون الحق ويتحرون الصواب ولا يمنعهم شيء من الأخذ به أينما كان، قال الدراوردي: "رأيت مالكا وأبا حنيفة في مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد العشاء الآخرة، وهما يتذاكران ويتدارسان حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به وعمل عليه أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة لواحد منهما"[مكي، ١٤٢٤هـ، ص٦٥].

أما المناظرة البريئة من الجدل والتي يكون الغرض منه الوصول على الحق فلا ينبغي لعالم قط أن يتحاشاها، ولهذا ناظر مالك أبا يوسف في مقدار الصاع فأمر مالك بعض من حضره من أبناء الأنصار والمهاجرين وتحت يد كل واحد منهم صاع يقول: هذا صاع ورثته عن أبي عن جدي صاحب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال مالك: هذا الخبر الشائع عندنا أثبت من الحديث فرجع أبو يوسف إلى قوله[خليفة، ١٤١٣هـ، ص٦٩].

٣- المراسلة:

يعد أسلوب التعليم بالمراسلة من الأساليب التي مارسها رجال التربية والتعليم والدعوة على مر العصور بدءا بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإلى العصر الحاضر، لا سيما إذا تعذرت وسائل الاتصال واللقاء بين المعلم

والمتعلمين، وتباعدت بيئاتهم وكثرت مشاغلهم. وكان السابقون يحصلون على العلم بطريقتين: هي الرحلة والالتقاء بالعلماء والأخذ عنهم، أو عن طريق وسيلة المراسلة، إما أن يرسل المعلم رسالة علمية تتضمن المسائل العلمية إلى الآخرين، أو يرسل التلاميذ وأفراد المجتمع بعض الأسئلة إلى العالم ويقوم بالإجابة عنها عن طريق المراسلة[الزهراني، ١٤٢٤هـ، ص٤٣٥].

ومن تلك المؤلفات والرسائل التي قام بها الإمام مالك: رسالة لابن وهب في الرد على القدرية، ورسالة في الأقضية، كتب بها إلى أحد القضاة، ورسالة في الفتوى، ورسالة إلى خليفة المسلمين هارون الرشيد في الآداب والمواعظ؛ وقد طُعن في نسبتها إليه، ورسالته في إجماع أهل المدينة إلى الليث بن سعد.

ويندرج تحت هذا الأسلوب كتابة العلم والإجابة عن أسئلة الناس والمستفتين، والباحثين، ولا زال أسلوب التعليم بالمراسلة أحد الأساليب المهمة في التعليم، بل أصبح هذا الأسلوب له مؤسسات خاصة تقوم بخدمات المساعدة التربوية والتعليمية تسمى "مؤسسات التعليم بالمراسلة"[الزهراني، ١٤٢٤هـ، ص٤٣٦].

وقد اشتهر في التاريخ رسالة فقهية بعث بها الإمام مالك إلى الليث بن سعد كما سبق، وهذه الرسالة تعد نموذجاً رائعاً من نماذج الحوار العلمي الذي يدور بين قطبين من أقطاب الفقه والعلم في الأمة الإسلامية[الشرباصي، د.ت، ص١٠٩].

وذكر الليث في ثنايا هذه الرسالة أنه قد بعث للإمام مالك بكتب ينظر فيها، فقال: "...وذكرتُ نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك، وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها"[الشرباصي، د.ت، ص١٠٣].

٤ - أسلوب الأسئلة:

كل إنسان في هذه الحياة له طاقات معينة وبالتالي فإن معارفه محدودة ولن يحيط بكل شيء، ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة، ولذا تراه يبحث عن إجابات لما يجهل، ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال، وللسؤال مزايا متعددة من توفير للجهد والوقت والمال، كما أن فيه تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين، خاصة إذا كان السؤال من أهل الخبرة والاختصاص، قال تعالى:M ! " # $ % & ') | * + , - . / 0 L[النحل:٤٣]، وابن شهاب ــ أحد شيوخ الإمام مالك ــ يقول: "العلم خزانة مفاتحها المسألة"[أحمد، ١٤١٣هـــ، ص١٢٣، ١٢٥].

ويجمل بالسائل أن يتأدب بآداب السؤال، فلا يرفع صوتا، ولا يقاطع متكلما، ويراعي اختيار الألفاظ المناسبة في غير ما تكلف، والأوقات المناسبة للسؤال، وأن يتجنب السؤال إذا كان الشيخ يمشي توقيرا للعلم، ثم ينتظر الإجابة في تواضع واحترام، وينصت لفهمها واستيعابها[أحمد، ١٤١٣هـــ، ص١٢٥].

قال ابن وهب: سمعت الإمام مالكا عندما يكثر عليه بالسؤال يكف، ويقول: حسبكم! من أكثر أخطأ، و كان يعيب كثرة ذلك، و يقول: يتكلم كأنه جمل مغتلم يقول: هو كذا، هو كذا، يهدر في كل شيء. وسأله رجل عراقي عن رجل وطئ دجاجة ميتة فأخرجت منها بيضة، فأفقست البيضة عنده عن فرخ، أيأكله؟ فقال مالك: سل عما يكون، ودع ما لا يكون. وسأله آخر عن نحو هذا فلم يجبه، فقال له: لم لا تجيبني يا أبا عبد الله؟ فقال له: لو سألت عما تنتفع به لأجبتك[القاضي عياض، ١٤٣٠هـــ، ص ص١٥٩-١٦٠].

وقال أشهب: سئل الإمام مالك عن مسألة فأجاب فيها، ثم قال مكانه: لا أدري، إن نظن إلا ظنا، إنما هو الرأي، وأنا أخطئ وأرجع، و كل ما أقول يُكتب[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٥٩].

قال مصعب: وجهني أبي بمسألة، ومعي صاحبها، إلى مالك، فقصها عليه فقال: ما أحسن فيها جوابا، اسألوا أهل العلم[القاضي عياض، ١٤٣٠هـ، ص١٥٥].

ولم يكن ــ رحمه الله ــ قوله لا أدري أو لا أحسن عن عجز مطلق كما يتوهم بعض الناس أو من في نفسه حقد وغيره من الإمام في صنيعه هذا، ولكنه يقول ذلك عندما يكون الذي وصل إليه ظنا لا ينبغي إعلانه، أو لم يجد لهذه المسألة شبيها فيما سمع من فتاوى الصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ وما أثر عمن يقتدي بهم فهو ــ رحمه الله ــ الفقيه، الثاقب النظر، الحاد الفطنة، السريع البديهة، ولكنه مع ذلك التقي الذي يخشى الافتراء على الله تعالى[أبانمي، ١٤٠٥، ص٧٠].

٥ - التأليف:

كان عصر الإمام مالك عصراً علمياً متميزاً على كثرة ما ألم به من تقلبات سياسية، مع بطش أحياناً بالعلماء، كما نال الإمام مالك نصيبه من المحنة، ولقد نشأ الإمام مالك في أسرة علمية نشطة، وأمتاز بصفات خَلقية وخُلقية أضفت عليه المهابة والوقار، مما ساهم في شهرته ونشر مذهبه وآراءه، ولقد نسب للإمام مالك أربعة عشر كتاباً ــ في نسبة بعضها إليه نظر ــ، ومن أشهرها الموطأ، وإنما لم تشتهر بقيتها لأنه رواها عنه من كتب بها إليه، أو

سأله إياها، أو آحاد من أصحابه ولم تروها الكافة[الحدادي، ١٤٢٥هـ، ص٤٥١].

والموطأ هو أهم كتب الإمام مالك على الإطلاق. قال الإمام القاضي ــ رحمه الله ــ: قال ابن مهدي: "ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ". وقال الشافعي: ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢١٥].

ويعد الموطأ أول مؤَلَّف ثابت النسبة من غير شك، ذاع وانتشر في الإسلام، وتناقلته الأجيال جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا، وهو ثابت النسبة إلى الإمام مالك ــ رحمه الله ــ وهو يعد الأول في التأليف في الفقه والحديث معاً، فقد كان الناس في العصر قبله يعتمدون على الذاكرة أكثر مما يعتمدون على الكتاب، ويعتمدون في العلم على السماع والتلقي، لا على المكتوب المدون[أبو زهرة،٢٠٠٢م، ص١٨١].

وإن نسبة الموطأ إلى مؤلفه الإمام مالك ليست محل خلاف بين أهل العلم، بل اتفقت كلمتهم على أنه كتابه الذي حرره بيده، وهو أول كتاب قصد منه إثبات الصحيح من سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلذلك قال الشافعي: "ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك"[القاضي عياض،١٤٣٠هـ، ص٢١٥].

وقد عني الإمام مالك ــ رحمه الله ــ بتأليفه وتدوين الأحاديث الصحيحة فيه حتى قالوا: إنه مكث فيه أربعين سنة يهذبه وينقحه، ويستدل لذلك بما رواه السيوطي في مقدمة شرحه للموطأ عن الأوزاعي، أنه قال: "عرضنا على مالك

الموطأ في أربعين يوماً فقال: كتاب ألفته في أربعين سنة، أخذتموه في أربعين يوماً ما أقل ما تفقهون فيه"[السّباعي،٢٠٠م، ص٤٧٠].

ورتب مالك الموطأ على أبواب الفقه، وسماه الموطأ أي الممهد المنقح، وهو من كتب الصحاح في السنة، وأول مصنف رتب على الأبواب من المصنفات الصحيحة.

ويعد نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي هو مرحلة تصنيف الحديث، فقد كان الإمام مالك في أعظم مرحلة في جمع الحديث وضبطه، والاحتياط به، والتوثيق في اختيار رجاله، إذ كان جمع الحديث لم ينضج بعد، فَخَطَا به الإمام مالك خطوات رائعة مباركة، ذلَّلَّ فيها لمن بعده طرقاً كانت صعبة، وأصولاً كانت مبتكرة[مالك، ١٤٣٢هـ، ص٧].

و أخيرا لا يخفى أن الإمام مالكا ــ رحمه الله ــ كان علما من أعلام الهدى ومصباحا من مصابيح الدجى، فقد وهبه الله تعالى علما واسعا، وفهما زاخرا، وحافظة فذة، سخرها جميعا في خدمة العلم و طلابه، فذاع صيته، وانتشر علمه، وكُتب له القبولُ بين الناس. والمتتبع لأسلوبه ــ رحمه الله ــ في التدريس والتعليم يدرك بجلاء سبك مذهبه وجودة مبدئه، في مختلف فنون العلم، وطرائقه. ومن هنا تظهر أهمية دوره التعليمي الرائد، والذي كان نبراسا لكثير من الفقهاء والمحدثين وغيرهم، كونه راسخا ومتنوعا، ومنظما، ويراعي طبقات العقول ودقائق الأفهام. فحري بكل باحث وعالم النهل من معين نهجه تعليما وتدريسا، وذلك بتتبع أساليبه وحذو منهجه في التدريس والتأليف والمناظرة والمراسلة وغيرها ... فقد حوى ــ رحمه الله ــ ملكة علمية راقية، مكنته من تأسيس مذهب قائم على أصول راسخة متينة.

الفصل الخامس

الاستخلاصات والتوصيات

ويتضمن ما يلي:

- الاستخلاصات العامة
- التوصيات
- المقترحات

الاستخلاصات:

في ضوء ما تم عرضه في الفصول السابقة، يمكن للباحث أن يستنتج ما يلي:

١- أن الإمام مالكاً هو علم من أعلام الفكر التربوي الإسلامي، الذين ساهموا في تنشيطه وتطويره، وخاصة في قيامه في مواجهة علماء الكلام.

٢- دعوة الإمام مالك للعودة للكتاب الكريم والسنة المطهرة، وهما المصدران الأساسيان في التربية الإسلامية.

٣- إن المبادئ التربوية عند الإمام مالك تعتمد في تحقيق أهدافها على ترجمة العلم إلى عمل، وبدون العمل لا يصبح للعلم معنى، فالإيمان لا يرد في القرآن الكريم إلا مقترنا بالعمل، والفصل بين العلم والعمل؛ أو بين النظرية والتطبيق ليس له مكان في الإسلام، ولا في مبادئ التربية عند الإمام مالك.

٤- ضرب الإمام مالك أروع الأمثلة في الحث على طلب العلم، والجمع بينه وبين العمل، والسعي لتحصيله، والصبر على الشدائد لأجل تعلمه، وإن العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله، وأن العلم يسبق العمل.

٥- أن الإمام مالكاً نشأ في بيئة محبة للعلم، وذلك وضعٌ شجع مالكاً على طلب العلم، وقد منَّ الله تعالى عليه بحافظة قوية وذكاء تام، فتوافر له بذلك عنصرا النبوغ، ففاق أقرانه، وصار في عداد العلماء في سن مبكرة.

٦- وضع الإمام مالك واجبات وآداب على المعلم الالتزام بها حتى يستطيع تحقيق هدفه من التعليم كأن يتواضع للمتعلمين، وأن يعتز بما لديه من علم، وأن يجعل من نفسه قدوة للمتعلمين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتأديبها، وأن يكون عاملا بعلمه، مخلصا في علمه ونيته، حتى يتعلم الطلاب من سلوكه كما يتعلمون من قوله وعمله.

٧- يرى الإمام مالك مبدأ طلب العلم منذ الصغر، فقد بدأ بطلب العلم في نفسه منذ سن مبكرة جداً، حتى قيل إنه كان يرتاد حلقة شيخه ربيعة الرأي، وفي أذنه شنف ــ كالقرط يعلق بأعلى الأذن ــ وهذا يدل على صغر سنه، وكذلك عندما سئل عن تعليم الصبيان في المسجد كره ذلك؛ خشية أن يتعرض المسجد للنجاسة، وهذا يدل على أنه يرى تعليمهم في ذلك السن في مكان آخر خارج المسجد.

٨- اهتم الإمام مالك ــ رحمه الله ــ اهتماماً كبيراً بالعلم، فتمثله في أقواله وأفعله، وعَلِمَ فضله وشرفَ حمله ونشره، الأمر الذي انعكس على تقديره لأهل العلم، ومعرفته لفضلهم.

٩- المعلم هو عامل أساسي في نجاح العملية التعليمية، وأنه من أهم عناصر التعليم، ولا يستطيع المتعلم بلوغ مراده وتحقيق أهدافه إلا إذا أحسن اختيار معلميه، فلقد عني مالك باختيار المعلم، وتحديد عناصر كفاءته.

١٠- أن المظهر الجميل إذا رافقه علم نافع وعقل راجح، كان أكثر تأثيراً في نفوس الناس، وأدعى لقبول صاحبه واحترامه، وكان حري بالإجلال.

١١- يعتبر عصر الإمام مالك من أنضر العصور الإسلامية نشاطاً في التعليم، فقد كانت حلقته تضم الأعداد الكبيرة من المتعلمين، وقد أدى ذلك النشاط العلمي إلى ظهور مذهبه، الذي ذاع صيته، وانتشرت سمعته في أصقاع العالم الإسلامي، والذي اعتمد عليه الكثير من المسلمين منذ ذلك العصر إلى وقتنا الحاضر.

١٢- الإمام مالك له استقلاله في العمل السياسي، يتضح منه عدم تأثره بشيوخه، أو تقليده لهم في منهجه السياسي، وإن توافق معهم في بعض الجوانب، فإنما هو توافق ناشئ عن نظر واجتهاد وليس عن تأثر وتقليد، فأوضحت موقفه من الحكام السياسيين ومن الصراعات السياسية في عصره، وتخطيه حظوظ النفس

بعد محنته التي تعرض لها، واختياره العفو تحقيقاً لأهداف سامية رسمها، وبينت أيضاً منهجه في المشاركة السياسية من أجل قبول الدعوة واستمرارها، وموقفه من قبول أعطيات الخلفاء، واعتماده في منهجه السياسي المستندات الشرعية والضوابط الفقهية.

١٣- استفاضت شهرة مالك بإعظام حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشدة اتباعه، وتثبته فيما يروي عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحرصه على معرفة أقوال الصحابة ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ والتابعين.

١٤- أكَّدَ الإمام مالك على حماية المجتمع من المعتقدات الضالة والتصدي لها، وعدم الرد على أهلها في أوساط المبتدئين من المتعلمين والعامة؛ حماية لفكرهم، وخشية على تأثرهم بهم، وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر بالأمن الفكري.

١٥- وضع الإمام مالك مقياسين لرد بعض الأحاديث، الأول: يتعلق بالسند، وهو أن الراوي إذا كان مبتدعاً يدعو إلى بدعيته فإنه لا يقبل حديثه. الثاني: يتعلق بالمتن، وهو أنه إذا كان الحديث مما يستدل به أصحاب البدع تركه.

١٦- نادى الإمام مالك بإجراء الرواتب للمعلمين، وتمكينهم من التفرغ لطلب العلم وتعليمه.

١٧- وضع الإمام مالك قاعدة جليلة من قواعد علوم الحديث، وهي التفريق بين العدالة والضبط، التي تقررت في قبول الحديث لما تحررت مسائل هذا الفن فيما بعد.

١٨- أن الإمام مالك كان له دور ملموس ومؤثر في جميع جوانب الحياة الدينية والسياسة والاجتماعية والاقتصادية.

١٩- امتاز الإمام مالك بصفات خَلقية وخُلقية أضفت عليه المهابة والوقار، مما ساهم في شهرته ونشر مذهبه وآرائه.

٢٠- على الرغم من وفرة المساجد وانتشارها وكثرة الكتاتيب وشيوعها، فإنّ قلة من العلماء اتخذوا منازلهم موضعاً لنشر العلم وتعليمه، وهذه القلّة سببها أنّ الله جعل البيوت سكناً وموضعاً للاستراحة كما قال تعالـــى:M ! " # $ % & ...L[النحل:٨٠]. ولذلك لـــم يتخذ المســـلمون البيوت مجلساً كالمسجـــد أو الكُتاب، لأنّ حلقة الدرس وما تستدعيه من حضور مكثّف للطلبة وحركة وأنشطـــة تتعارض مع الوظيـــفة الأساسية للبيوت بوصفها موضعاً للسكن والقرار والهدوء وغيرها. لكن الضرورة جعلت بعض العلماء ــ كالإمام مالك ــ ممن كان حريصاً على نشـــر العلم وتعليمـــه أنْ يجعلوا من بيوتـــهم موضعاً للتعليم.

٢١- عاصر الإمام مالك بن أنس أربعة عشر خليفة من حكام المسلمين، تسعة خلفاء من الدولة الأموية، وخمسة خلفاء من الدولة العباسية، وشاهد دولة إسلامية موحدة قوية اهتمت بالفتوحات الإسلامية ونشر الدين الإسلامي، وسرعان ما رأى هذه الدولة القوية انقسمت على نفسها شطرين، شطراً بالمشرق، وشطراً بالمغرب، ثم رأى سقوط هذه الدولة، وشهد انتقالها من بني أمية إلى دولة بني العباس، وشهد الحوادث الدامية التي ترتبت على سقوط تلك الدولة وبناء هذه الدولة الجديدة، ولعل ذلك كان سبباً لكراهيته للسياسة، ولكنه ترجح إليه أنه من المصلحة عدم مجابهة هؤلاء الحكام أو الخروج عليهم، أو ترك نصحهم ووعظهم، وذلك لاستمرار الدعوة إلى دين الله، وتعليم الناس أمور دينهم.

٢٢- يجب على المعلم المربي إذا سئل سؤالاً من تلاميذه وهو لا يعرف إجابته أن يقول: لا أدري، وأن لا يستعجل الإجابة خشية أن يقال له: أنه لا يعرف، وأن لا يدلي بإجابة خاطئة ومضللة خشية ذلك.

٢٣- تبين من هذه الدراسة أن عصر الإمام مالك كان عصر بداية تدوين العلوم، كما كان عصر نشاط علمي، تمثل وجود فطاحلة العلماء في كل فن، كما وجد في هذا العصر عددٌ من المعتقدات الباطلة، التي كان لأصحابها جهد ظاهر في وضع الأحاديث؛ وكان لتلك الأحوال أثرها على مالك؛ حيث أسهم في التأليف، وأبرز جهد له في هذا المجال تأليف الموطأ، كما كان له جهد ظاهر في الرد على أصحاب تلك المعتقدات.

٢٤- أن مالكاً أخذ العلم عن عدد كبير من الشيوخ، وأن شيوخه الذين روى عنهم الحديث كانوا ثقات.

٢٥- أن مالكاً كان من أكثر العلماء تلاميذا.

٢٦- وجوب العودة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، وتحكيمهما في أقوالنا وأفعالنا، وفي كل شؤون حياتنا، كما قال الإمام مالك: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"، فهما اللذان صلح عليهما أول هذه الأمة، وهما اللذان لا يصلح آخرها إلا عليهما، فما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً.

التوصيات:

في ضوء ما توصلت إليه الدراسة من استنتاجات يوصي الباحث بما يلي:

١- ضرورة العودة إلى المصادر الإسلامية الأصيلة والمتمثلة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والالتزام بتعاليم الدين الإسلامي وتطبيقها في جميع الميادين ومنها الميدان التربوي.

٢- وجوب العودة إلى تراث المسلمين الفكري الضخم، والبحث فيه، وفي آراء المفكرين والمربين المسلمين؛ لأن في ذلك طريقا لإثراء الفكر التربوي من آراء المعلمين المسلمين ومبادئهم وآدابهم.

٣- ضرورة اقتران العلم النظري بالتطبيق العملي في المجالات التربوية المختلفة، ثم الالتزام به في جميع مجالات الحياة، لأن مجتمع التربية والتعليم هو الصورة الحقيقية لأي مجتمع، سلبا كان أو إيجابا

٤- إيجاد البيئة المناسبة والمشوقة لعملية التعلم، التي تجذب المعلم والمتعلم وتزيد في أدائهما.

٥- وضوح الرؤية لدى المعلم والمتعلم من عملية التعلم، ليزداد رغبة في تحقيقها.

٦- مواصلة البحث في مجال التربية السلوكية عند الإمام مالك لما فيه من الاستفادة الجليلة.

المقترحات:

امتدادا لهذه الرسالة، يقدم الباحث بعض البحوث المقترحة ومنها:

١- دراسة تتناول بعض المفاهيم التربوية مثل: مفهوم التربية المستمرة، وذلك في ضوء الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام مالك، وما يدل عليه هذا المفهوم في الإسلام.

٢- دراسة تتناول التعرف على مدى التزام المعلم والمتعلم في العصر الحاضر بتطبيق القيم والمبادئ التربوية الإسلامية داخل المؤسسات التعليمية وخارجها.

٣- دراسات تبين السبق التربوي عند علماء المسلمين، ومدى اهتمامهم بطرق التربية وأساليب التدريس ومهاراته وأنشطته المختلفة.

٤- دراسة تتناول أساليب الاستفادة من الفكر التربوي الإسلامي في مجال التربية.

٥- دراسة تتناول الفكر التربوي الإسلامي في القرون المفضلة الأولى.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

-أبانمي، عبدالرحمن سليمان. (١٤٠٥هـ). **الإمام مالك بن أنس محتسباً**. رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الدعوة والإعلام. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

-إبراهيم، محمد إسماعيل. **أئمة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، مالك، الشافعي، ابن حنبل (حياتهم – عصرهم – بيئاتهم – آراؤهم – مذاهبهم)**. القاهرة: دار الفكر العربي. (ب.ت).

-ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم. (١٤٢٠هـ). **الكامل في التاريخ**. (ط٢). حققه واعتنى به: عمر عبدالسلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي.

-ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرح. (١٤٠٩هـ). **صفة الصفوة**. ضبطها وكتب هوامشها: إبراهيم رمضان و سعيد اللحام. بيروت: دار الكتب العلمية.

-ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي. (١٤٠٨هـ). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، وحققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط. دمشق: دار ابن كثير.

-ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (١٤١٩هـ). **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**. بيروت: دار الكتب.

-ابن تيمية، أحمد. (١٤١٢هـ). **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، وساعده: ابنه محمد. الرياض: دار عالم الكتب.

-ابن حجر، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي. (١٣٢٦هـ). **تهذيب التهذيب**. الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف.

-ابن خلفون، محمد بن إسماعيل بن محمد. (١٤٢٥هـ). **أسماء شيوخ مالك بن أنس الأصبحي الإمام رضي الله عنه وأرضاه بمنه**. تحقيق: أبي عبدالباري رضا بوشامة الجزئري. الرياض: مكتبة أضواء السلف.

-ابن خلكان، لأبي العباس شمس الدين أحمد. (١٤١٤هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. (ج٤). حققه: إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

-ابن سحنون، محمد. (١٣٩٢هـ). **كتاب آداب المعلِّمين**. مراجعة وتعليق: محمد العرُوسي المطوي. تحقيقات: حسن حسني عبدالوهاب. تونس: دار الشرقية.

-ابن عبدالبر، يوسف. (١٣٥٠هـ). **تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**. القاهرة: مكتبة القدسي.

-ابن عبدالبر، يوسف. **جامع بيان العلم وفضله**. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. ج(٢).القاهرة: دار الحرمين للطباعة.(د.ت).

-ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين. (١٤١٧هـ). **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**. دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنّان. بيروت: دار الكتب العلمية.

-ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل. (١٤٢٤هـ). **البداية والنهاية**. (ط٨). اعتنى بهذه الطبعة ووثقها: عبدالرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون. بيروت: دار المعرفة.

-ابن منظور، جمال الدين المصري. (١٤٢٦هـ). **لسان العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية.

-أبو داود، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**. تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد. (ج٤). بيروت: المكتبة العصرية.(ب.ت).

-أبو زهرة، محمد. (٢٠٠٢م). **مالك، حياته وعصره – آراؤه وفقهه**. القاهرة: دار الفكر العربي.

- أبو زهرة، محمد. **تاريخ المذهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**. القاهرة: دار الفكر العربي. (ب.ت).

-أحمد، عبدالمحسن علي. (١٤٠٥هـ). **موقف الخلفاء العباسيين من أئمة أهل السنة الأربعة ومذاهبهم وأثره في الحياة السياسية في الدولة العباسية**. الدوحة: دار قطري الفجاءة.

-أحمد، هاشم علي. (١٤١٣هـ). **التربية الذاتية من الكتاب والسنة**. مكة المكرمة: دار الأهدل.

- الإدغيري، عبدالسلام. (١٤٠٠، جمادى الثانية). **سيرة الإمام مالك مع الخلفاء**. بحث مقدم لندوة الإمام مالك ــ إمام دار الهجرة ــ بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. فاس: مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

-الأسفرائني، يعقوب بن إسحاق. (١٤١٩هـ). **مسند أبي عوانة**. تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي. بيروت: دار المعرفة.

-الأصفهاني، أحمد بن عبدالله. (١٤٠٩هـ). **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. بيروت: دار الكتب العلمية.

-الألباني، محمد ناصر الدين.(١٤٠٥هـ). **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**. ط(٤). بيروت: المكتب الإسلامي.

-الألباني، محمد ناصر الدين.(١٤٠٦هـ). **مختصر صحيح البخاري**. ط(٥). بيروت: المكتب الإسلامي.

-أمين، أحمد. (١٣٤٣هـ). **ضحى الإسلام**. (ط٧). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

-الباجي، سليمان بن خلف. (٢٠٠٤م). **المُنتقى شرح موطأ الإمام مالك**. راجعه وخرج أحاديثه: محمد محمد تامر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

-بدر، عبدالباسط. (١٤١٤هـ). **التاريخ الشامل للمدينة المنورة**. المدينة المنورة: دار النشر غير معروفة.

-الترمذي، محمد عيسى. **سنن الترمذي**. حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني. الرياض: مكتبة المعارف. (د.ت).

-التواتي، عبدالكريم. (١٤٠٠، جمادى الثانية). **المنهجية في مدرسة مالك بن أنس وفي أصول مذهبه**. بحث مقدم لندوة الإمام مالك ــ إمام دار الهجرة ــ بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. فاس: مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

-الجندي، عبدالحليم. **مالك بن أنس ــ إمام دار الهجرة ــ**. ط(٣). القاهرة: دار المعارف. (د.ت).

-الحدادي، مشعل. (١٤٢٥هـ). **الإمام مالك وأثره في علم الحديث النبوي**. الكويت: غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان.

-حسن، إبراهيم حسن. (١٤١٦هـ). **تاريخ الإسلام ــ السياسي والديني والثقافي والاجتماعي(العصر العباسي الأول في الشرق ومصر والمغرب والأندلس)**. (ط١٤). بيروت: دار الجيل.

- الحمد، أحمد. (١٤٢٣هـ). **التربية الإسلامية**. الرياض: دار إشبيليا.

-الحميدي، عبدالعزيز أحمد. (١٤٢٠هـ). **براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة**. القاهرة: دار ابن عفان.

-خليفة، محمود عبدالمتجلي. (١٤١٣هـ). **الإمام مالك حياته وآراؤه وفقهه**. الأزهر: مجلة الأزهر عدد شهر شوال ١٤١٣هـ.

-الخولي، أمين. (١٣٧٠هـ). **مالك بن أنس**. عابدين: دار الكتب الحديثة.

-الخولي، أمين. **أعلام العرب (١١) مالك تجارب حياة**. مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. (بدون تاريخ).

-دار المستقبل للنشر والتوزيع ــ قسم الدراسات والبحوث. (٢٠٠٢م). **الأئمة الأربعة**. عَمان: دار المستقبل للنشر والتوزيع.

-الدبسي، جمعان أحمد. (١٤١٥هـ). **الفكر التربوي عند الإمام أحمد بن حنبل**. رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى قسم التربية الإسلامية والمقارنة في كلية التربية. جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

-الدرديري، الطاهر محمد. (١٤٠٢-١٤٠٣هـ). **تخريج الأحاديث النبوية الواردة في مدونة الإمام مالك بن أنس**. رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

-الدقر، عبدالغني. (١٤٠٩هـ). **من أعلام التربية العربية الإسلامية ــ الإمام الشافعي**. الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

-الدقر، عبدالغني. (١٤١٩هـ). **أعلام المسلمين (٢٣) الإمام مالك بن أنس ــ إمام دار الهجرة**.(ط٣). دمشق: دار القلم.

-الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. (١٤٠٢هـ). **سير أعلام النبلاء**. ط٢. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة.

-الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. **تذكرة الحفاظ**. بيروت: دار الكتب العلمية.(د.ت).

-الراعي، شمس الدين محمد. (١٩٨١م). **انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك**. تحقيق: محمد أبو الأجفان. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

-الرويشد، عبدالله بن سعد. **قادة الفكر الإسلامي**. (ط٢). القاهرة: رابطة الأدب الحديث. (د.ت).

-زمزمي، يحيى بن محمد. (١٤١٤هـ). **الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة**. رسالة ماجستير منشورة مقدمة إلى قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين. جامعة أم القرى. مكة المكرمة: دار التربية والتراث.

-الزهراني، علي إبراهيم. (١٤٢٤هـ). الأساليب التعليمية المستقاة من خلال تراجم الإمام البخاري على أحاديث كتاب العلم في جامعه الصحيح. **مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها**، ١٥(٢٧)، ص ص ٤٠٧-٤٥٦.

-الزواوي، عيسى بن مسعود. (١٤١١هـ). **مناقب الإمام مالك بن أنس**. تقديم ودراسة وتحقيق الطاهر محمد الدرديري. المدينة المنورة: مكتبة طيبة للنشر والتوزيع.

-الزيتوني، الشاعري. (١٤٠٠، جمادى الثانية). **ذكرى الإمام مالك بن أنس إمام الأئمة**. بحث مقدم لندوة الإمام مالك ــ إمام دار الهجرة ــ بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. فاس: مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

-السّباعي، مصطفى. (٢٠٠م). **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**. المكتب الإسلامي: دار الوراق.

-سي، الحاج مالك. (١٤٠٠، جمادى الثانية). **الإمام مالك فقيها ومحدثا**. بحث مقدم لندوة الإمام مالك ــ إمام دار الهجرة ــ بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. فاس: مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

-السيوطي، جلال الدين. (١٤٢٤هـ). **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي. القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية.

-السيوطي، جلال الدين. (١٤٣١هـ). **تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك**. تحقيق: هشام بن محمد حيجر الحسني. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.

-السيوطي، جلال الدين. **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير**. جمع وترتيب: يوسف النبهاني. بيروت: دار الكتاب العربي.(د.ت).

-الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (١٤١٧هـ). **الموافقات**. ضبط نصَّه وقدَّم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سليمان. الخبر: دار ابن عفَّان.

-شاكر، محمود.(١٤٢١هـ). **التاريخ الإسلامي**. (ط٦). بيروت: المكتب الإسلامي.

-الشرباصي، أحمد. **الأئمة الأربعة(أبو حنيفة.مالك بن أنس.الشافعي.أحمد بن حنبل)**. مصر: دار الهلال. (د.ت).

-الشعلان، عبدالرحمن بن عبدالله. (١٤٢٤هـ). **أصول فقه الإمام مالك ــ أدلته النقلية**. رسالة دكتوراة منشورة مقدمة إلى قسم أصول الفقه في كلية الشريعة. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض: الإدارة العامة للثقافة والنشر.

-الشكعة، مصطفى. (١٤١٨هـ). **الأئمة الأربعة**. (ط٤). القاهرة: دار الكتاب المصري.

- شلبي، أحمد. (١٩٨٤م). **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**. (ط٧). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

-الشيرازي، أبو إسحاق الشافعي. (١٩٧٠م). **طبقات الفقهاء**. حققه وقدم له إحسان عباس. بيروت: دار الرائد العربي.

-الصَّلابي، علي محمد. (١٤٢٧هـ). **معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره "الدولة السفيانية"**. دمشق: دار ابن كثير.

- الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك**.(ط٢). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف.(د.ت).

-عبدالحميد، جابر، وكاظم،أحمد خير. (١٣٩٨هـ). **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**. القاهرة: دار النهضة العربية.

-عبدالعال، حسن إبراهيم. (١٤٠٩هـ). **الفكر التربوي عند بدر الدين بن جماعي**. ج(٣): مكتب التربية العربي لدول الخليج.

-عطية، عماد محمد. (١٤٣٠هـ). **تطور الفكر التربوي عبر القرون**. الرياض: مكتبة الرشد.

-العلواني، طه جابر. (١٩٩٢م). **الأزمة الفكرية المعاصرة** ، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- العوضي، أحمد بن عبدالله. (١٤٢٢هـ). منهج مالك بن أنس في العمل السياسي. **مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها**، ١٤(٢٣)، ص ص٧٥٩-٨١٨.

-عويضة، كامل محمد.(١٤١٣هـ). **مالك بن أنس ــ إمام دار الهجرة**. بيروت: دار الكتب العلمية.

-فان دالين، ديوبولدب. (١٩٩٤م). **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**. (ط٢). القاهرة: مكتبة الأنجلو.

-فرحان، إسحاق أحمد. (١٤١١هـ). **التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة**. **الأردن**: دار الفرقان.

- القابسي، علي. (١٩٨٦م). **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعَلِّمين والمتعلِّمين**. دراسة وتحقيق وتعليق وفهارس وترجمة فرنسية: أحمد خالد. تونس: الشركة التونسية للتوزيع.

-القاضي عياض، ابن موسى السبتي. (١٤٣٠هـ). **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**. تحقيق: علي عمر.القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

-القاضي عياض، ابن موسى اليحصبي. (١٣٨٩هـ). **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**. تحقق: السيد أحمد صقر. القاهرة: دار التراث.

-القرطبي، محمد بن أحمد.(١٤٢٧هـ). **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة.

-القرعان، ختام محمود. (١٤١٣هـ). **الفكر التربوي عند الإمام أحمد بن حنبل**. رسالة ماجستير، الأردن: جامعة اليرموك.

-الكتاني، عبدالرحمن. (١٤٠٠، جمادى الثانية). **الجانب السياسي في حياة الإمام مالك رحمه الله**. بحث مقدم لندوة الإمام مالك ــ إمام دار الهجرة ــ بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. فاس: مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

-الكناني، علي بن محمد. (١٤٠١هـ). **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**. (ط٢). حققه وراجع أصوله وعلق عليه: عبدالوهاب عبداللطيف وعبدالله محمد الصديق. بيروت: دار الكتب العلمية.

-لحمر، حميد. (١٤١٥هـ). **الإمام مالك مفسراً**. بيروت: دار الفكر.

-مالك، أنس. (١٤٣٢هـ). **الموطأ**. رواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق: كلال حسن علي. بيروت: مؤسسة الرسالة.

-محجوب، عباس. (١٤٠٨هـ). **أصول الفكر التربوي في الإسلام**. اعتنى بتصحيحه: سمير أحمد العطار. دمشق: دار ابن كثير.

-مسلم، ابن الحجاج النيسابوري. (١٤١٢هـ). **صحيح مسلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. بيروت: دار الكتب العلمية.

-المغراوي، محمد بن عبدالرحمن. (١٤١٦هـ). **موقف الإمام مالك من العقيدة السلفية**. تقديم عبدالله السبت.الشارقة: دار الفتح.

-المقدسي، محمد بن أحمد. (١٤١٦هـ). **مناقب الأئمة الأربعة**. حققه: سليمان مسلم الحرش. الرياض: دار المؤيد.

-مكي، رحاب بنت عبدالسلام. (١٤٢٤هـ). **آداب المعلم والمتعلم عند الأئمة الأربعة**. رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى قسم التربية الإسلامية والمقارنة في كلية التربية. جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

-موسى، فاديغا. (١٤٢٨هـ). **أصول فقه الإمام مالك ــ أدلته العقلية**. رسالة ماجستير منشورة مقدمة إلى قسم أصول الفقه في كلية الشريعة. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض: دار التدمرية.

-الناصر، محمد المكي. (١٤٠٠، جمادى الثانية). **المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل**. بحث مقدم لندوة الإمام مالك ــ إمام دار الهجرة ــ بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. فاس: مكتبة الشريف أحمد الحسيني.

-الندوي، تقي الدين. (١٤٢٣هـ). **الإمام مالك رضي الله عنه ومكانةُ كتابه(الموطأ)**. (ط٤). لبنان: دار البشائر الإسلامية.

-النقيب، عبدالرحمن عبدالرحمن. **التربية الإسلامية – رسالة ومسيرة**. القاهرة: دار الفكر العربي. (د.ت).

-النيسابوري، أبوعبدالله الحاكم. (١٤١٧هـ). **المستدرك على الصحيحين**. القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.